الطبعة 2

أنبياء الكذبة!

كريم الشاذلي

مكتبة الرمحي أحمد الكتاب ٤٥
http://t.me/ktbpdf

مقام

أنبيـــاء كـــذبة!

كريم الشاذلي

مقام
للنشر والتوزيع

مكتبة الرمحي أحمد
http://t.me/ktabpdf

الكتاب ٤٥

على سبيل التقديم..

زمان

قبل عقد ونيف تقريبًا، دفعت بأول كتبي إلى المطبعة كخطوة أولى في مد جسر من التواصل مع أصدقائي القراء، وخلال هذه السنوات اشتد بنيان الوصل، وصارت دائرة أصدقاء الورق في تزايد ملحوظ.

كنت حالما حينها، كان ابن الخامسة والعشرين يؤمن بالأمل إيمانًا راسخًا، بدا وكأنني أريد أن ألون بقلمي وجه الحياة كي تصبح أكثر جمالًا، واتساقًا، وإبداعًا.

وبالرغم من أن سنوات عمري التي سبقت احترافي الكتابة لم تكن هانئة أو مثالية، حيث تذوقت فيها مرارة العناء والمشقة، وتجرعت في أحيان غير قليلة كؤوس من الضيم والظلم، وتعاملت مع ألوان من البشر بطبائع، وأهواء، وأعراق

مختلفة، وتغربت فيها عن موطني، وتعرضت فيها لكل ما قد يتعرض له صبي من توتر وضيق وعنت، وتقلبت بين أمل ويأس، خوف ورجاء، ثقة واضطراب، إلا أنني حين بدأت الكتابة غمست ريشتي في دواة التفاؤل، وأخذت على عاتقي نشر ثقافة الأمل والحب والرضا عن النفس والناس.. والله.

وعندما اتخذ منحنى التواصل شكلا أكثر قربًا عبر المحاضرات والندوات التي ألقيتها في ربوع عالمنا العربي، وخلال جولات في جامعاتها، وانخراط بين شبابها، أخذت أصحح بعض أفكاري، وأعدل من اتزان وجهتي حتى تصبح أكثر واقعية، لكنني ومع ذلك، كنت محتفظًا بتفاؤلي، أنقله إلى كل من حولي، وأنا مطمئن إلى صحة مساري وتوجهي.

كنت أرى أن اليأس رفاهية!، ليس هناك أيسر من أن يُطلق الواحد منا أحلامه ويجلس ليبكي جفاء الدهر وقسوة الأيام، ولا يليق بنا أبدًا أن نجنح لهذا الجدار المتهالك، الحياة رغم صعوبتها لم تُغلق أبوابها بعد، وموعود الله بحسن الجزاء يحثنا دائما إلى الإقبال على العمل والتفاني فيه بنفس مليئة بالخير والصلاح وحب الحياة.

وعندما بدأت بشائر التغيير تهب على عالمنا العربي مبشرة بربيع مشرق محمود النتائج، صارت ثقتي بصحة منهجي أكثر رسوخًا، وكيف لا؟ وها هو المستقبل يفتح ذراعيه على اتساعهما كي يحتضن أمانينا العذارى، وتطلعاتنا الجامحة.

وكان من حسن طالعي أن رحت أجوب عالمنا العربي من المحيط غربًا إلى الخليج شرقًا، ومن الشام وفلسطين واليمن شمالًا، إلى السودان جنوبًا، أؤكد خلال رحلتي على قيمة ما فعلناه، ممتنًا لبأس جيلنا وصموده وعنفوان أفكاره، وخصوبة خياله.

كان هذا قبل أن يقبض المستقبل ذراعيه فجأة، ويحيلنا إلى واقع يفاجئنا بوجهه الشرس القبيح!.

بلا مقدمات، صار حلمنا كابوسًا، وهبط سقف طموحنا إلى ما دون أقدامنا، كثر تخبطنا، نتحرك بلا هدى أو دليل، نحاول أن نرفع رأسًا تواطأ الجميع على جعله منتكسًا.

خاننا – نحن الشباب – أصحاب الشعر الأبيض، جيل آبائنا وأجدادنا استكثروا علينا الحلم، أبوا إلا أن يورثونا الذل والهوان، مع توصية أن نورثه لأبنائنا مضاعفًا!.

لا سبيل لإنكار تخبطي أنا الآخر، لا مهرب من الاعتراف بأن الشك زارني في قيمة ما كتبته سابقًا، لا محيص من تدوين هذا وتأكيده.

شعور مرير بالهزيمة صار يلازمني كظلي، بت متهمًا في أعين الكثير من أصدقائي بالخداع والتضليل، الأمل الذي بشرتهم به كان فاسدًا، أسلمهم في نهاية المطاف إلى طريق مجهول.

عندها أدركت أن الأمل كان يجب أن تسبقه مرحلة أهم التحريض!.

التحريض على الكفر بأبجديات واقعنا المهترئ، وتعاليمنا البالية، وتراثنا النكد، وفهمنا المغلوط.

انتبهت حينها إلى أن جواز المرور من الضلال إلى اليقين، ومن الكفر إلى الإيمان، بدأ بالإنكار والرفض، "لا إله إلا الله"، هذه العبارة التي تفصل بين عقيدتين بدأت بكلمة "لا"

هذا ما نحتاج إليه إذن

الكفر قبل الإيمان!.

وعليه بدأت مشواري هذا مشوار التحريض ضد كل من يحاول أن يسرق منا حاضرنا ومستقبلنا.

ضد الأنبياء كذبة

نعم إن ما نعيش فيه يرتكز على قاعدة متينة، الفساد له أنبياء يقربونه من الناس، أنبياء يحملون شعارات محببة للنفوس، يملكون سحرًا لا يمكن أبدًا إغفاله.

بوضوح، صرت مؤمنًا أن الواقع الخرب الذي يلفنا له رهبان يدافعون عنه، استطاعوا وعبر سنوات طويلة أن يجمدوا ملكات التفكير الناقد لدينا، أعطونا دينًا معلبًا سهل الهضم يشبه في ظاهره دين الله، لكن المضمون مختلف تماما، لكن من ينظر إلى المضمون، أو يهتم به!.

رتلوا على أسماعنا أهازيج باطلة، وقيمًا ملوثة، وسلوكيات لا تتفق مع عقل أو منطق أو دين.

وعليه بتنا في مواجهة حقيقية ضد الماضي بكل عفنه وعنفوانه.

تلك المواجهة التي يجب أن تسبق أي حديث عن الطموح، والأمل، والتفاؤل، فبدونها سنعود سريعًا إلى نقطة الصفر.

وكتابي هذا قد تراه متفرقًا كتفرق الوجع من حولنا، فصوله لا تعدو أكثر من رصاصة هنا ورصاصة هناك، محاولة لإزعاج الوحش الكامن على صدورنا، على أمل أن تتزايد الطلقات منك ومني ومن هذا وذاك عدونا لن ترديه طلقة واحدة

تاريخ من البؤس يحتاج منا إلى ما هو أكثر من تغيير محدود بسيط

يحتاج إلى أن نتشارك جميعًا في تلك الجريمة

جريمة التحريض.

كريم الشاذلي

القاهرة 2015

****

دعوة للتحريض

إن الأشجار تموت واقفة ذلك أنها تموت ببطء، تنسحب من الحياة تدريجيًا، ننظر إليها شامخة وفي ظننا أنه شموخ القوة والعنفوان، بيد أن الواقع يفجائنا بعد مدة أن ما نُعجب به ليس سوى شموخ مصطنع، وبأن ما نراه ليس أكثر من جثة ثابتة الجذور

تموت الأشجار من الداخل، تشيخ، يتم الأمر ببطء شديد وفي الوقت الذي نظن أن ما نراه هو ارتفاع حياة لا يمضي وقت طويل حتى يتهاوى الطود الشامخ، يصبح ميتًا.

والحياة ما تلبث أن تخبرنا أن بيننا من يموت واقفًا يموت وهو يتنفس!.

بيننا من يمضي في الحياة شامخًا برأسه، معتدًا برأيه، يملك عنفوانًا كاذبًا، لكنه من الداخل يموت على مهل. يسقط فجأة بلا مقدمات تمامًا كشجرة بائسة.

يموت حينما يرفض أن يتفاعل مع الحياة، يرفض أن يملك شجاعة التعبير عن نفسه، يأبى أن يصبح مرنًا فيغير ما تبناه من معتقدات ثبت خطؤها، وآراء بناها على موقف عاطفي.

نعم ميت كل من ثبت على رأيه بعدما تبين له خطأ ما يعتقد، ومضى في غيه وكبره، مستكبرًا عن العودة إلى جادة الطريق الصحيح..

ميت كل من توهم الكمال في نفسه، والعبقرية في عقلة، والنبوغ في ذاته، ومضى وقد ارتدى زي القضاة يحكم على هذا وذاك، يلقي من يشاء خلف قضبان الجهل والغباء، ويصطفى من يحب ليضعه في سماء المعرفة والعظمة

ميت ولو كان شامخًا من لا تؤثر فيه حوادث الأيام، ودوران الدهر، وظن أن ما عنده هو منتهى الحكمة وغاية المقصد. ميت لأنه ذهل عن إدراك أحد أهم سنن الحياة، وهي أن الإنسان منا موقف.

موقف الرفض والقبول.. الإيمان والكفر.. الدفع والتدافع.

أزمتنا أننا نحيا في واقع أول أبجديات السلامة فيه أن يكون المرء باهتًا، ساكنًا، يرقص على إيقاع الجماعة، التميز فيه والاختلاف يأتي بما لا تحمد عقباه.

فترانا ننتمي لدين أغلق أبناؤه باب الاجتهاد في أمور الفكر، والفقه، والعقيدة، وويل ثم ويل لمن حاول أن يصنع ثمة فجوة ينفذ من خلالها إلى براح التجديد والتنوع، قرون مضت على هذا الحال حتى شاخ الجسر الذي يربط بين الناس وبين الله.

فخرج الدين من كونه أيديولوجيا اجتماعية، تشرح وتنير وتهدي الناس إلى طريق الصلاح والطمأنينة إلى كونه عبادة فردية، تأخذ الناس إلى التفكير في الموت عوضًا عن الحياة، والتسليم للظلم بدلًا من دفعه، والبحث عن النجاة من معركة الدنيا دون أن خوضها، وتقديس اجتهادات السابقين بدلًا من البناء عليها وتطويرها وتجديدها.

كمية المُقدسات من حولنا لا عد لها، عليك أن تُسلم بها جميعًا دون أن تسأل حتى ولو بصوت خافت عمن ألبسها لباس القدسية، فتاريخنا مقدس، نحن أبناء الماضي العظيم، يكفيك أن تعلم أن أجدادك قد حيروا الدنيا بما تركوه من تراث، وليس لك أن تسأل عما ورّثه الأجداد لنا من مناهج علمية، وفلسفية، وتربوية، واجتماعية، عما تركه الأجداد وينضح في حاضر الأبناء ويؤثر على بنائهم الحضاري.

والوطن مقدس، عليك أن تردد خلف الجوقة نشيد الزور، أن تغني مستنكرًا على من يسأل عما قدمه لنا الوطن، بأن

عليه أن يعود إلى الرشد ويخبرنا بما قدمه هو له، وعندما تحاول أن تكسر هالة التقديس تلك، عندما تُعلن كفرك ورفضك بأن يصبح الوطن سجنًا للبعض وجنة للبعض الآخر، فعليك إذن أن تتحمل تهم التخوين، وحفلات القتل المعنوي والجسدي إن تطلب الأمر!.

جنودنا هم خير أجناد الأرض، وأرضنا مقبرة للغزاة، وأطفالنا هم الأذكى في العالم، وحكامنا أنصاف آلهة، والله قد اصطفانا دون كل البشر كي يجعلنا أبناء هذا البلد العظيم.

عليك أن تؤمن بكل هذا مبتهجًا، ثم ترد الجميل فتورثه لأبنائك وأحفادك.

وعندما تجد الفجوة كبيرة بين ما تردده بأنك تنتمي لخير أمة، وتتعبد لربك بأفضل الأديان، وتعيش على الأرض المباركة، ويحميك خير جنود الأرض، ثم ترى بأن الواقع يخبرك بأنك تعيش واقعيًا خارج الزمن، وأن دينك مضطهد، وأرضك مُظلمة، وجندك قد هجروا الخنادق وسكنوا القصور والفنادق،

حينها تبدأ في الإنكار، وبدلًا من أن تفكر وترفض وتتغير تأخذك الصدمة إلى الالتصاق أكثر مع الإرث الفاسد أنت الآن جثة تتنفس!.

ترفض أن يكون لك موقف فيما يدور حولك، ويشكل حاضرك ومستقبلك.

فقط من يتحدى هو من يحيا، من يتمرد هو من يحق له الادعاء بأنه قد عاش حياة حقيقية كاملة، من بنى رأيًا ودافع عنه، ودقق في إرثه فوافق ما أيده العقل، ورفض ما يضاد الواقع والمنطق.

الحي هو ذلك الذي يرى بأن الابتلاء في نصرة الحق خير من السلامة تحت مظلة الباطل.

الحي هو الذي يرفض حتى ولو بالقلب، إن تعذر سبيل الرفض بالجوارح..

فرق شاسع يا صاحبي بين النفوس الرافضة لقيود الذل، وتلك التي توحدت معها.

بين من يحدث نفسه بالجهاد والكفاح، ويرى بأن عليه دورًا في التغيير، ومن يحدثها بحديث الأماني، ويدعو ربه دعاء العاجز بأن يولي من يصلح له حاله، ويتقي الله فيه!.

تمرد يا صاحبي كي يحق لك حينما تغمض عينيك للأبد أن تشرف بحياة عشتها يقينًا.

واليك نصيحة أبي الحسن – رضي الله عنه – حين يوصيك بألا تستوحش طريق الحق لقلة سالكيه

فهذا حال الحق وأتباعه دائما قليل من قليل

لكنهم مع قلتهم يستطيعون إنارة الحياة لغيرهم، فهم الأحياء ولو غابوا عن المشهد وغيرهم أموات ولو طاولوا السماء، تمامًا كالشجرة التي نخرها السوس من الداخل وهي للناظرين.. شامخة..

****

ولا أنا عابد ما عبدتم ..

سأخبرك بكل شيء يا أبي ..

إنها اللحظة التي لا يحق لي فيها أن أخفي شيئًا، عسى البوح – وإن لم يكن مستساغًا لك – أن يخفف شيئًا من حدة الوجع القاطع في روحي، وروح جيل أنتمي إليه.

سأخبرك وأنا على يقين بأن ما سأقوله لن يزيد قناعتك إلا رسوخًا، قناعة أننا جيل لا يرضى، يريد أن يخالف سنن الحياة، ويغير واقعًا تؤمن بأنه لا يجب أن يتغير.

أنا من الجيل المغضوب عليه دائمًا، المُشار إليه بأصابع الاتهام، ويُصحب في حله وترحاله بنظرات اللوم، وعبارات

الاستنكار، سأخبرك بسر الفجوة التي تزيد كل يوم، بالقطيعة الفكرية والروحية التي تفصل بيننا، والتي لن تُردم يومًا، فالأمر – شئنا أم أبينا – غير قابل للتفاوض فضلًا عن المهادنة والانصياع.

مذ وعت عيني الحياة وأنا في أعقابك أسير، علمتني أن أغمض عيني وأتبعك، ومنذ اللحظة الأولى التي اخترت لي فيها ملبسي، وحذائي، ومدرستي، وتخصصي الجامعي، ولاحقتني نصائحك الجامدة في اختيار شريكة حياتي، وأنا أتبعك..

أنت دائما تعرف أكثر مني، تريد، بحسن نية في غالب الأحوال، أن تجنبني خطأ الاختيار، وغاب عن عقلك أن مصادرتك لحريتي في أن أختار وأخطئ وأدفع ثمن اختياري هذا، جعلني مسخًا، أقبل بأنصاف الحلول، وأنصاف المواقف، وأرضى بهضم حقي، وأشعر بالحبور لأن جلادي تفضل وخصم شيئًا من ضريبة العذاب التي أقرها علي.

لو فعلناها كما يقولون "رجلًا لرجل"، وأتى كل منا بدفاتره، فاسمح لي أن أخبرك أن كل ما أنا فيه هو من عمل يدك

هذا الثوب المهترئ الذي أرتديه، أنت لا غيرك الذي ألبسني إياه، وكنت حريصًا على الدوام ألا أخلعه..

ثوب اتسعت ثقوبه فلا يقبل رتقًا، وإلا فأخبرني كيف يمكن أن نخفي ثقب الوطن الذي يُظهر عورات كرامتنا الضائعة

الوطن الذي نسكنه ولا يسكننا، وكل ما يربطني به بضع شعارات رخيصة، وأغنيات سمجة، وبرواز يحتضن صورة الزعيم الأخير

سألتك يومًا عن معنى كلمة وطن، كلامك حينها لم يقنعني، إن الأرض التي نطؤها والعقار الذي نسكنه ليسا وطنًا، كما أن ذكريات الطفولة وحواديت الجدات ليست المعنيين.

لم تحدثني وقتها عن العقد الاجتماعي الذي يجب أن يربط بين أبناء المجتمع الواحد، لم تخبرني عن حقوقي وواجباتي، عن

علاقتي بحاكمي، وعلاقته بي، لماذا يا أبي لم تصدقني القول بأن الوطن يعني العدل والكرامة، الحق والمستحق.

أنا كافر يا أبي بوطن يختزله جيلك في صورة زعيم، وعندما يحب تعريف نفسه، أو تقديم إنجازاته، لا يزيد عن التأكيد على أنه كان شيئًا مذكورًا منذ 7000 سنة.

وليس بعد الكفر بالباطل إلا الإيمان بالحق

الإيمان بأن الوطن هو صنيعة المواطن

المواطن الذي تقيأ ما رضعه من ذل الاستعباد، وقرر أن تكون الكرامة مطعمه وشرابه، المواطن المشاكس الذي لا يدخل محراب الوطنية إلا بعدما يطهره من أصنام الطواغيت، وأزلام الماضي البائس.

الوطن هو حلمنا القادم لا تفاخرنا المتعصب بماضينا المنتهي.

هذا عن ثقب الوطن، فماذا عساي أن أقول عن ثقب الدين..!

الدين الذي آمن به جيلك وحاول جاهدًا أن يسجننا فيه..

الدين الذي لو رآه أبو جهل، فلن يسعه إلا أن يؤمن به معكم..

هل حقا تعاليم السماء بهذه الهشاشة؟!.

عندما جاء الوحي يا أبي على محمد – صلى الله عليه وسلم – افتتح مشوار الرسالة بكلمة "اقرأ"

لم يقل صل، أو جاهد، أو آمن

قال "اقرأ" لأن الوعي هو المقصود ها هنا

اقرأ في سير الأولين، لتعرف أن ضريبة الذل باهظة اقرأ في خبر من مضى لتعرف كيف تخط مسارك في الحياة

اقرأ في سيرة العظيم "محمد" لتدرك أنه لم يزد على أن علم أتباعه كيف يعيشون بشرف، ويؤمنون على بصيرة، ويتعاونون على أسس البر والخير والصلاح.

"محمد" يا أبي الذي أتاه رجل وهو في خضم معركة مصيرية ليقول له "أريد أن أقتص منك" فكشف عن بطنه الشريف في الحال، دون أن يتحجج أن الوقت غير مناسب، أو أن طبول الحرب على الكفر أو الإرهاب تؤجل أي حديث عن حقوق الناس.

الدين الذي أؤمن به غير دينكم

في ديني أتعلم جهاد أحمد بن حنبل قبل أن أطوف بفقهه، وأدقق النظر في سلوك أبي حنيفة حين أصر على أن يكسب قوته بيده حتى لا يوظف علمه لخدمة سلطان أو ملك، وأجلس بين يدي أبي ذر، وعلي، والحسين، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن الجبير كي أفهم فكرة تصادم الحق بالباطل.

فكرة الشهادة في سبيل ما أؤمن به، والتضحية من أجل أن تظل سنة التدافع ماضية.

في ديني لا آخذ بفتوى شيخ عاجز، ولحوم العلماء عندي محفوظة طالما حفظوا أمانة الله!.

وفي ديني أيضًا الإيمان محله القلب، فلا أقبل أن يوزع أحد صكوك الغفران على الناس، أو يصنفهم وفق هواه.

فرق شاسع جدًا بين دين يرى بأن أعظم الجهاد كلمة حق يقذف بها المرء في وجه سلطان جائر، وبين "فقه الحاكم المتغلب" الذي يدفعنا إلى طأطأة الرأس خوفًا من سيف الطاغية.

هل تعرف يا أبي لماذا زادت شراسة الغوغاء على دين الله، وصارت السخرية من تعاليم الدين مباحة ؟.

لأن الدين الذي تؤمنون به مُجهدة جدًا نصرته!.

صعب أن تنصر دينًا لا تؤمن به حقًا لا يجري في دمك..

لا ينضح في سلوكك.

مرهق أن تنصر قضية كل ما يربطك بها الإرث.

من هنا يصعب الالتقاء بيننا يا أبي

ستظل الفجوة تتسع، ستزيد بزيادة الهوة بين رضاكم عن الواقع وتمردنا عليه

وما يزيد من إصرارنا أن ما دفعناه – وإن كان باهظًا – في سبيل العيش كرامًا، لا يزيد عما دفعتموه كي تعيشوا سالمين.

****

تربيتنا الغلط!

أبي.. على غير ما ربيتني سأكون صريحًا!!.

دعنا نطرح حديث الأماني جانبًا، فلا مندوحة اليوم من ملاصقة الحقيقة والنظر في عينها الباردة!.

لطالما قلنا إن أزمتنا أزمة تربية، وأفردنا حديثًا طال في بعض أوقاته عن الرؤى والأطروحات التي نحتاج إليها في تواصلنا التربوي، وكثيرًا ما وجدنا ثمة راحة في قراءة الكتب التي تتحدث عن التربية بصيغة "افعل ولا تفعل"، وصار الكلام المُعلب – على تكراره – محببًا للنفس، نأخذ منه ما يوافق الهوى، ونطرح جانبًا ما يزعج قناعتنا والحجة دائمًا جاهزة " يا أخي هذه مثالية"

حسنًا.. اليوم فلتسمح لي يا أبي أن أخبرك بما ظل حبيس الصدر لأعوام، لن أفصل فيه لأسمح لك – إن أحببت – بالالتفاف حوله إذا لم يرق لك، وفي الاختصار ثمة فائدة لمن قرر أن يطلق سراح فكره ويتدبر.

لن أحدثك عن الرؤى التي نحتاج إليها، وإنما سأعرض ما يجب أن نلقيه خلف ظهورنا كافرين به، ناقمين عليه.

سأحدثك عن تلك الخرافات التي ورثناها كابرًا عن كابر، وباتت من كثرة ما نلوكها على ألسنتنا أشبه بالحقيقة الكونية التي لا ينصلح حالنا إلا بها.

خمس خرافات تخفي وراءها جرائم غير مكتملة الأركان، فالشهود وقتئذ قُصر، وأنتم – الآباء – متواطئون على إخفاء كل أثر لها ودليل!.

الخرافة الأولى قولك: سأضحي بحياتي إن اقتضى الأمر من أجل أبنائي!.

والحقيقة أن أبناءك يريدون أن تعيش من أجلهم لا أن تموت في سبيلهم، يريدون منك أن تدرك جيدًا أن شقاءك وسعيك في الأرض من أجل توفير أفضل مسكن، وملبس، ومركب هو في الحقيقة ليس كل ما يبغون، وأنهم يريدون منك أن تكون أفضل مربٍ قبل أن تكون أفضل عائل، معظمنا يتوحد مع فكرة التضحية بالوقت والصحة والجهد، دون أن نسأل أنفسنا عن التضحية الحقيقة التي يحتاجها منا أبناؤنا، التضحية بساعة نجلس فيها إليهم، نسمع منهم، نشاركهم أحلامهم، نوضح لهم ما استشكل على أذهانهم، نطمئنهم بوجودنا الحقيقي في حياتهم، يريدون منا أن نودع عبارة "هو أنا يعني بتعب عشان مين" التي نتخذها درعًا في معركة الحياة.

تلك المعركة التي تأخذنا من أبنائنا، لنفاجئ بأننا لم نربهم كما ينبغي، وأن هذا الكائن الواقف أمامنا والذي يرتدي ما ألبسناه، ويأكل ما أطعمناه، ويتحدث بلسان يشبه ألسنتنا قد تربى في محضن آخر، واكتسب معايير الخطأ والصواب من هنا

وهناك، وصار له ألف منبع يستقي منه قيمه ومبادئه، وأن حياتنا التي ضحينا بها من أجله – كما نردد – لم تكن كافية!.

الخرافة الثانية في قولك: أريد أن يكون ابني أفضل مني!.

والحقيقة أن أبناءك لا يريدون أن يكونوا إلا أنفسهم، أفضل مني تلك التي ترددها كثيرًا ما تخفي خلفها طموحك أنت لهم، وتداري بها في كثير من الأحيان محاولاتك في إفراغ أفئدتهم من الحلم والطموح الذي قد يخالف ما رسمته في مخيلتك لحياتهم المستقبلية، وكان الأجدر بك أن تقول أريدهم أن يكونوا أسعد مني، أسعد بما يرتضوه لأنفسهم حتى وإن خالف ما تريده أنت لهم.

تريده أن يكون طبيبًا، مهندسًا، يحمل لقبًا قد لا يعبر عنه لكنه يعني لك الكثير، لا يهمك أن يكون مسخًا من مجموع المسوخ التي تمضي بيننا ونصطدم بها صباح مساء، المهم أن يكون مسخًا أنيقًا تتشرف به في كل محفل ومجلس!.

الخرافة الثالثة إيمانك بأن الأبناء لا يرضيهم أي شيء.

مكتبة الرمحي أحمد

والحقيقة أنك أنت من صنع الهوة التي تفصل بينك وبينهم، صنعتها بعدم اهتمامك ببناء جسر من الحوار والتواصل معهم في سني عمرهم الأولى، حتى إذا ما اقتحم ولدك مرحلة المراهقة وظهرت عليه أعراض التمرد جلست تشكوه لله والملائكة والناس أجمعين، أو حاولت – على مضض – أن تصنع جسرًا لحوار مهترئ، وعندما يعرض ولدك عنك تتخذها ذريعة تؤكد من خلالها سوء سلوكه واعوجاج مذهبه.

الخرافة الرابعة: لقد وفرت له كل شيء، لكنه كما ترى.

نعم تلك خرافة يا سيدي، ولو فتحنا بوابة فؤاده ليحكي لحدثك عن اللحظات التي قضاها ملتاعًا وهو يستمع إلى صوت شجارك مع أمه، وتقطيب جبينك في الحوار، وإشاحة وجهك عند النقاش، وصوتك العالي حين تود إنهاء الأمور مستخدمًا فرمانك النافذ، هل تعلم بأن أسوء ما وفرته له هو ظنه المريب بأن الكيان الأسري هو المرادف الأول للشجار

والنكد والتوتر، هل تدرك سوء ما غرسته فيه من سلوكيات شائنة سيكررها في قابل أيامه وظنه حينها أن ما يفعله هو السلوك الأمثل، هل أدركت يا سيدي أن تربيتك تلك التي تفخر بأنها "لا ينقصها شيء" ربما تفسد جيلين لا جيلا واحد.

الخرافة الخامسة قولك: لقد ربيتك بما يرضي الله.

ودليلك هو تلك المرات التي اصطحبته فيها للمسجد، أو قولك له ذات مرة أن الكذب حرام، أخبرني إذن كم مرة قلت له "الناس" وكم مرة قلت له "الله"؟!.

حدثني يا سيدي عن الأوقات التي تعهدت فيها ضميره تارة بالقول وأنت تحدثه عن فلسفة الرزق أو الابتلاء أو الصبر أو القضاء والقدر، أو بالفعل من خلال رؤيته لك كأنموذج أمثل لانتصار الحق على الباطل، وهيمنة الرضا على الطمع، واستحضار الآخرة لتضبط لك مسار الدنيا، كم مرة رآك أمينًا، وشجاعًا، ووفيًا؟!.

تلك أشياء ترسمها ريشة الأيام يا صاحبي، ولا تُنقل بالتعاليم المرسلة.

أخبرونا قديما أن فعل رجل في ألف رجل تفوق في تأثيرها قول ألف رجل لرجل، فكيف الحال لو كان هذا الرجل هو الأب، ذلك الذي يرى الولد من خلاله الدنيا، ويضبط مؤشر حياته على هداه؟!.

مقالي وإن كان يزعجك فهو لو تدري غيض من فيض، وفي صدر ولدك وجع لا يعلمه إلا خالقه، ولا سبيل لقلبه إلا بأن تتوقف للحظة متفكرًا في جل ما آمنت به سابقًا، فلا عذر لمن يضلون السبيل – وإن حسنت النية – وفي ظنهم أنهم يحسنون صنعا!.

****

مسجل بعِلم الوصول

أبي العزيز بعد التحية

أحيطكم علمًا أنني وجدت ما وعدتني إياه باطلًا!.

فهل تسمح لي أن أراجع معك فصولًا من أحاديث سابقة، ففي المراجعة – كما علمتني – استدراك وتصحيح؟!.

قلت لي يومًا إن الضمير أمر مهم، هو الذي يقود المرء منا كي يحدد بوصلة حياته، هو الذي يدفعه دائمًا إلى اختيار الجانب الصحيح، والأهم من كل هذا هو السبيل الوحيد كي أنام مرتاح الجنان هادئ النفس.

والحقيقة أن لا شيء يجر البلاء إلا ذياك الضمير، أريد أن أكون آمنًا في بيتي وبين أطفالي فيمنعني الضمير من إطباق الفم، وينهاني عن إدارة الظهر، ويخوفني من حياة الذل، يضج مضجعي – لا سامحه الله – بتذكيري دائمًا أن الحياة موقف ومبدأ، وأن الموت بشرف ودفاع عن المبادئ التي أؤمن بها أشرف من حياة الدعة والسكينة وطأطأة الرأس.

حاولت معه كثيرًا كي يتركني في حالي، صرخت في أعماقي أن لست أنا المعني بإماطة الأذى، ودفع الظلم وتعديل مسار الحياة، فما يلبث إلا ويكشف عن ابتسامة هادئة مستفزة، مؤكدًا أن ليس بعد دفع المنكر – سلوكًا، وقولًا، واعتقادًا – ةحبة خردل من إيمان!.

أبي ..آسف إن قلت لك أن ما أخبرتني إياه لم يكن صائبًا!.

قلت لي إن الكذب ثلمة في إيمان المرء وانتقاص لرجولته، وسقطة ليس من بعدها نهوض.

حسنًا، الحياة يا أبي غير هذا، الكذبة من حولنا ينعمون، يتحكمون في مقادير الناس، يسيرون دفة الحياة، ترفع صورهم في المحافل، تتلقاهم فلاشات الكاميرا، وصارت أحاديثهم أثمن من "فلسفة الفلاسفة، وطب الأطباء"

في الحياة الحقيقية صار الصدق مأزقًا، قوله صار باعثًا على الاحتقار والازدراء، أن تقول الصدق – أو على الأقل ما تؤمن بأنه صدقًا – كفيل بجعلك خائنا وغدا منبوذا.

ألم تخبرني يومًا أن الفضيلة كالبحر، تلفظ خبث الأدعياء أولًا بأول، ألم تنهني عن الانتهازية، واقتناص الفرصة واهتبالها؟!.

انظر مليًا لما جنته تعاليمك، انظر للوحشة التي يعيش فيها كل من آمن بمثل ما علمتني، انظر للفضائل يا أبي وسيرتد إليك البصر خاسئا وهو حسير، لا شيء في الدنيا يا أبي يؤكد ما تقول لا شيء!.

أمرتني ذات يوم ببذل الجهد، ووعدتني أن من يعمل ويجتهد سيجد الأجر، أخبرتني بثقة أن الأجر على قدر المشقة، وأن الكسالى ليس لهم في دنيا النجاح مكان، سامحك الله !.

في دنيانا لا يعترفون بهذا، إن كانوا قديمًا يقولون بأن الناس على دين آبائهم، فإنهم اليوم يؤكدون أن الناس على مكانة آبائهم، مكانتك بين الناس لا يحددها عرق جبينك، بل سلطة ذويك، وأقصى ما يمكنك فعله إن أردت تفوقًا وخذلك نسبك، أن تقبل بالتضحية بماء وجهك وكرامتك وشرفك في بلاط الوالي.

لا طريق ثالث هنا كي تنال ما تستحق، إما نسب ينجيك، وإما تزلف يحميك!.

أي عالم هذا يا أبي الذي استقيت منه تعاليمك!؟.

حزين أنا – حقا حزين – حين أصارحك بحقيقة مشاعري تجاه ما لقنتني إياه، غاضب وحق لمثلي الغضب حين أقف

مصدومًا تائهًا فارغ الفؤاد، أبحث عن بوصلة غير تلك التي أهديتني إياها وثبت عطبها.

لا زلت أذكر ذلك اليوم البعيد، حين ربّتّ على كتفي بعد محنة تعرضت لها وصحبتني إلى المسجد، لا أنكر يومها أن برد الطمأنينة زار وجداني ، لم تتحدث كثيرًا، لكن الدرس كان واضحًا، إلى الله ملجأك وشكواك.

لكن الله – جل اسمه – لم يسلم من التشويه هو الآخر

يتلاعبون بدينه يا أبي كتلاعب الحاوي في السيرك، أصحاب العمائم يلهون بدين الله، اقتل بأمر الله، نافق بأمر الله، اكذب بأمر الله، وإن لم تفعل، فأنت الكافر المقتول حينها، ستودع دنياك وصوت الشيخ يطاردك، يحاول أن يسرق منك آخرتك بعدما سلب دنياك، ها أنا أسمعه يا أبي يطمئن قاتلي بأن: "اقتلهم فرائحتهم نتنة طوبى لمن قتلهم"

الحياة هنا تختلف يا أبي

أنا وجيلي نتخبط في تيه ليس له آخر، ليس ثمة ضوء نهتدي به، لا نملك ترف الاختيار، كلنا مهزومون رغم أنوفنا، قلوبنا شابت، وهممنا لم تعد قادرة على حملنا، كلنا نبحث عن عكاز من أمل أي أمل.

أبي الحبيب

أعتذر أن أثقلت عليك، وتالله لو كانت الشكوى في دنيانا مباحة، لرفعت صوتي عاليًا، لكن شكوى العاجز هي الأخرى صارت جرمًا نؤخذ به.

والسلام ختام.

****

لماذا يجب أن تكون نصابًا؟!

ولماذا لا ..!؟

تمهل واسمع مني إذن فإني يا هذا ناصحك الأمين.

إنها المهنة الأوفر حظًا، والأكثر ربحًا وأمانًا..

طُف بفكرك حينًا، وبناظرك أحيانًا وسترى أن روادها يحيطون بنا من كل حدب وصوب..

افتح تلفازك أو جريدتك أو مذياعك

افتح عينك وستجدهم بين يديك ومن خلفك وفوق حائط بيتك، وفي مدرستك، ومكتبك الوظيفي.

ستجد منهم من يرتدي جلبابًا، ومن يمسك مسبحة، ومن يتبختر في بزته المدنية أو العسكرية

إنهم يحيطون بك إحاطة السوار بالمعصم، حتى صرت بينهم غريبًا، والغريب يا صاحبي هو المستهدف، وهو الضحية.

ستقول لي مُحتجًا، وهل ضاقت السبل فصار النصب هو السبيل؟

واسمح لي أن أجيب على سؤالك بسؤال ..!

ولماذا تبدأ الطريق من أوله إذا كان يمكنك أن تختصره في قفزة واحدة؟.

لدينا هنا الحل..

والحل – صدقني – يسير، والعدة لو تدري أيسر..

حُلة فاخرة، وبمثل ثمنها شهادة من هنا أو هناك ثم نبدأ الطريق..

أنت الآن "باحث في التراث الإسلامي"، أو "دكتور في الطب البديل"، أو "خبير تنمية بشرية"، أو "أستاذ في الأدب الروسي" أو "دكتور وإعلامي ومفجر ثورة"

يحق لك أن تخطب في الناس عبر التلفاز أو المذياع، لك في رقبة الدولة دين، وعليك أن تحتال لأخذه، أحدهم قبل سنوات قليلة نال جائزة من الدولة بشهادة مجهولة المصدر يقل ثمنها عما أحدثك عنه، ستقول لي لكنهم كشفوه، إنها الصدفة يا صديقي، ثم ماذا جرى، إنه يرتدي قبعته، ويشذب شاربه، ويتمتع بقيمة جائزته التي هي من قوت الشعب، وفوق هذا يطل علينا بين حين وآخر عبر وسائل الإعلام ملقيًا لنا طوق نجاة لينقذنا من واقعنا المتعصب العفن.

افهم هذا، قوتك الكبرى لن تتأتى من قوة منطقك، أو صفاء حجتك، هذا لا يحدث هنا، الناس في أوطاننا مستعدون فطريًا للإيمان بك، وعندما يحدث هذا لن تصبح هناك مسافات فاصلة، سيطوفون حول هالتك السحرية مندفعين كاندفاع

الفراش إلى النار، سيقذفون بأنفسهم وأموالهم وأولادهم بين يديك.. فقط تحتاج إلى أن تبقيهم هكذا لأطول وقت ممكن، حتى يتوحدوا مع ما تقوله لهم، وحينها يصبحون هم أنفسهم أتباعًا لك، سيصدقون كل ما تقول دون أن تبذل جهدًا في جعله مقبولًا، إنهم يريدون أن يؤمنوا ويصدقوا، سيصعب عليهم كثيرًا أن يواجهوا أنفسهم بالحقيقة!.

لا تخف .. لديك دائمًا أساليبك الخاصة والتي لن يكتشفها أحد حتى لو كررتها آلاف المرات، عندما تشعر مثلا أن خطواتك لم تعد ثابتة، عليك حينها أن تشغلهم بقضية ما، قضية ليس لهم فيها ناقة ولا بعير، شريطة أن تمس معتقداتهم، وعليك حينها أن تكون صادمًا.

مكتبة الرمحي أحمد

ألق لهم طعمًا

إنهم يسبون النبي.. يتجرؤون على الصحابة.. يطالبون بخلع الحجاب.. يحرقون الكتب يهاجمون كتب التراث التي حفظت لنا الدين.. يخونون الوطن يتآمرون علينا..

عندها لن يبصر أحد يدك التي تمتد في جيوبهم، ولا الأخرى التي تخنق أحلامهم وحاضرهم ومستقبلهم.

بعض المحترفين في النصب – وهذه مرحلة متقدمة – قد يفعلها ثم يسبق الجميع لينادي بالقصاص، ستنبهر يقينا وأنت تراه ذاهلًا يتمتم في حرقة تبدو للجميع حقيقية: "ليتني كنت أنا الضحية والله ليتني كنت أنا ذلك المسكين"!.

أراك لا زلت متشككًا يا صاحبي، والشك لو تدري محمود إلا في جدوى هذا الطريق!.

لو كان طريق النصب خطرًا، فكيف خرج علينا من يقول بأنه يملك علاجًا لأمراض الإيدز وفيروس سي، وضغط الدم والسكر والضعف الجنسي، ثم ينام في بيته هادئًا بعدما انكشفت خدعته؟!.

لو كان طريق النصب شائكًا، فكيف يطل علينا كل يوم هذا العدد من الإعلاميين ليطرحوا أفكارهم ورؤاهم بعدما سمعنا

بأم آذاننا كبيرهم وهو يرسل لهم الأوامر، مشددًا على "أحمد" أن يكتب خلفه حتى لا يضيع حرفًا مما يقول؟!.

لو كان طريق النصب فيه ثمة مخاطرة، فهل يعقل أن يطيح هذا الدعي الأشر بكل ما تقوم به كليات الطب والصيدلة ويجلس محتالًا كالطاووس ليعالج أمراض الدنيا ببضع وصفات من البردقوش والجنزبيل، ثم ها أنت تراه يفتتح قناته الخاصة، بعدما تعب من افتتاح أفرع لصيدلياته التي تبيع الوهم للناس!.

لو كان طريق النصب غير آمن، فكيف إذن يرتقي المنبر إمام ليحدث الناس عن كل شيء إلا ما يخص أمور دينهم ودنياهم.

إن إيقاع النصب صار غالبًا، حتى غدا رجز قافلتنا من صميم لحنه وصار الحاكم والسجان والقاضي والجلاد يطربون له.

من ركب معهم فإنه إذ ذاك يغدوا هانئًا، ومناضلًا، شريفًا..

أما من أبى فلن يُبقي له ضميره من صديق!.

ستنكره الأرض وما عليها حتى يرى باطنها خيرًا من ظاهرها.

فهل ستركب معنا ؟!.

****

نفوس غاضبة

إنه الفن حينما يداعب الوجدان، حينما يتخفف من هوس إيرادات الشباك، ويطرح نفسه كقائد للجمهور معبرًا عنه وعن ضميره ووجدانه، عندما يقدم لنا ما يحتاجه . لا ما يطلبه . الجمهور!.

نحن كثيرًا ما نحجم عن طلب ما نحتاج، لأن ما نحتاجه إذا ظهر أمام أعيننا أحرجنا وأضاء تلك المساحات التي نرتاح وهي مظلمة غامضة.

هذا ما تردد في ذهني بعدما انتهيت من مشاهدتي لرائعة المخرج الأميركي سيدني لوميت "اثنا عشر رجلا غاضبا"، ساعة ونصف من الانتباه والشحذ الكامل للوعي كي يلاحق

السيناريو العبقري الذي كتبه "ريجنالد روز" وكان بطله الأول لفيلم صور بالكامل داخل غرفة ضيقة، وخلى – تقريبًا – من كل المؤثرات التي يمكن أن تستخدم كعامل جذب.

ولا أخفيكم سرًا أن الفيلم الذي عُرض عام 1957 أربكني كثيرًا، ذلك أنه تسلل إلى جانب خفي من الضمير، وحاول أن يصنع له مرآة عله يرى فيها نفسه، ويكشف له مساحات العنصرية، والانغلاق، والتشدد والتي تصنع فيه بقع سودا طالما أنكرها!.

يبدأ الفيلم في قاعة المحكمة، ذلك المكان الذي أنشأه أهل الأرض لإرساء العدل عليها، نرى القاضي وهو ينظر مليًا إلى هيئة المحلفين المكونة من اثني عشر رجلا تم اختيارهم ليحكموا في الأمر، كما نعلم فإن القانون الأميركي يحتم وجود هذا الهيئة التي تتكون من أشخاص لا يعرف بعضهم بعضًا، ويشترط فيهم حسن السلوك، والنزاهة، ويكون اختيارهم مشروطًا بموافقة كل من الادعاء وهيئة الدفاع، ويتم عزلهم عن متابعة أي شيء

عن القضية التي يتابعون جلساتها، لا صحف، لا تلفاز، إنهم ضمير الشعب الذي يقول الكلمة الأخيرة.

ينقل القاضي نظره بين هيئة المحلفين وقفص الاتهام الحديدي قائلًا: هذا الصبي الماثل أمامكم قد قتل والده بعد مشاجرة، وكما رأيتم طوال الجلسات الماضية، فإن لدينا شهودًا أكدوا على رؤيته وهو يقتل، لدينا حجته المهلهلة التي لم يستطع إثباتها، لدينا السكين الخاص به وقد زرع في بطن الأب المسكين، عليكم أن تجمعوا رأيكم، كما تعلمون القانون يؤكد على أنه لا يمكن تنفيذ الحكم فيه إلا بإجماع آراء الهيئة، نريد قرارًا واحدًا إما الإدانة وإما البراءة.

وهكذا تم إلقاء الكرة في ملعب هيئة المحلفين، وداخل غرفة خانقة سيئة التهوية، جلس الجمع حول الطاولة وقد أسروا في ضمائرهم أن ينتهوا من الأمر سريعًا، ولم التباطؤ والقضية شبه محسومة، عليهم أن يوقعوا على ورقة الإدانة ليدفعوا بالصبي إلى غرفة الإعدام.

قال أحدهم محاولًا أن يكون أكثرهم عملية: كما رأينا جميعًا، الفتى مدان، لكن البروتوكول يقتضى أن نصوت على القرار، الموافق على إدانة الصبي يتفضل برفع يده.

وهنا تبدأ المفاجأة ..ذلك أن رجلا واحدًا خالف رأي الجميع، ورأى أن عليه أن يعيد النظر في كل ما قيل.

ووسط نظرات الاستنكار قال موضحًا: ألا تستحق حياة إنسان أن نفرد لها بعض الوقت، نتأمل في كل دليل، ونحاول أن ندير الحجج لنراها من كل جهة، علنا نقف على عوار أو ثغرة ما!؟.

كان رأيه شاذًا، لذا كان منطقيًا أن يواجه بعاصفة من النقد والتجريح، اتهموه بالسفسطة، ومحاولة لعب دور رخيص، ولما لا والتهمة واضحة وثابتة، ولا تستحق دقيقة نقاش واحدة.

لم يهتز الرجل وإنما حاول أن يُراجع كل الحجج التي تم مناقشتها في قاعة المحكمة، ولكن بذهنية أخرى مبنية على قاعدة (ولم لا)!.

لم لا نُصدق المتهم ولو لدقائق، ونحاول أن ننظر للأمر من وجهة نظره؟!. لما لا نشكك في الشهود، ونحاول أن نراجع ونناقش ما قيل؟. لما لا نتمهل قبل أن نصدر حكمًا، نسمح لأهوائنا فيه أن تتحيز، وتعمى عن رؤية الجانب الآخر من الأمر مهما بدا ضعفه؟. ووسط تذمر ورفض من الجميع، بدأ الرجل في الحديث محاولًا أن يناقش الأمر بهدوء، ملقيًا ببذرة شك حول أول دليل من أدلة القضية.

كان ذكيًا حينما لم يصدمهم باطمئنانه إلى براءة الفتى، لكنه على الجانب الآخر صرح بعدم اطمئنانه كذلك لإدانته، رأى أن ضمير الإنسان القابع بداخله لن يتسامح مع تسرعه في الدفع بالصبي إلى منصة الإعدام، الضمير ولا شيء غيره هو الذي يجب أن يقود النقاش ويوجهه.

وهنا تظهر عبقرية العمل الفني، حيث نرى كيف للتجارب الشخصية، والأحكام السابقة، والطبائع النفسية أن تؤثر على قراراتنا، كيف يمكن أن نتبنى رأيًا لمجرد أنه يوافق معتقداتنا السابقة، ونعمى حينها عن رؤية الحقيقة.

فهذا رجلٌ لديه خصومة سابقة مع ولده، لذا فإنه يميل إلى رؤية جميع الأبناء عاقون، وذاك لديه أعماله الخاصة التي تحتاج منه أن يذهب إليها سريعًا، وذلك لديه مباراة هامة وقد منى نفسه ببعض المتعة، وآخر إمعة يميل حيث تميل مجمل الآراء.

كل هذا أثر على قرارهم، وجعلهم مساقين إلى إدانة الصبي، خصوصًا وأن لديهم حججًا ذات وجاهة، وهذا ما لم يكن خافيًا على الرجل المُخالف، والذي قال لهم: عليكم أن تتفكروا ولو قليلًا في الأمر، أعلم أنكم غاضبون من مخالفتي لتوقعاتكم، ورفضي لما ترونه أمرًا مُسلمًا، أتفهم ذلك جيدًا لعلمي أنه من الصعب دائمًا إبقاء التحيز الشخصي بعيدًا عن

أحكامنا تجاه الأمور، إن التحيز يحجب الحقيقة تمامًا، ويجعلنا أسرى لأهوائنا!.

انتهى الفيلم بانتصار المنطق، واستطاع رجل واحد والذي لعب دوره الممثل الأميركي "جون فوندا" أن ينقذ الصبي من حُكم الإعدام.

وفي المشهد الأخير من الفيلم، نرى أفراد هيئة المُحلفين وهم خارجون من مبنى المحكمة، قبل أن يلتفت أحدهم إلى ذلك الرجل الذي قلب الطاولة وغير رأيهم سائلًا: عفوًا، ولكن لم تخبرنا باسمك!؟.

نتفاجأ جميعًا أننا وحتى الدقيقة الأخيرة لم نعرف لصوت الحق اسمًا، لا يهم، المهم أن يكون صداحًا، أن يكون ضميره حاضرًا ليرجح كفة الحقيقة.

أن يكون عالياً لينذر ملايين الغاضبين الذين يعج بهم عالمنا اليوم، المتجهزين لرفع أصابع الاتهام لكل من يخالفهم، الحانقين على الدوام لكل ما يضاد قناعاتهم وما تربوا عليه.

أن يقف لينظر في عين كل قاض يجلس على منصة القضاء، وينظر بتشفٍ ووحشية إلى المتهم، ويقرر أن يحبس حريته، وكرامته، دون أن يهتز له جفن، أو يختلج فيه ضمير.

نريده أن يكون أنا، وأنت، أن يكون صوت ضميرنا الرافض لما ورثناه من عنصرية، وتعصب، وغضب، ورفض، ليخبرنا أن لا شيء في الحياة يساوي الإنصاف، والعدل.

وأن الضمير الذي يطلب الراحة بحجج عنصرية، ودوافع قد بناها بكراهيته ونقمته، هو ضمير مستريح في قبره.

****

هل لديك عدو؟

لا زلنا ننظر للأعداء على أنهم شيء سيء، نظن بأن وجودهم في حياتنا يعني أن هناك ثمة خطأ في معادلة الراحة الحياتية، نعتقد بأن المرء كي يكون سعيدًا، أو صالحًا، أو نقيًا فيجب أن تخلو قائمته من أي أعداء أو خصوم.

والحقيقة أن هذا تفاؤل مفرط؛ فالأعداء سنة كونية، ووجودهم أمر لا مهرب منه ولا محيص.

قالوا قديمًا: المرء بخليله، أي أن أصدقاءنا جزء من شخصيتنا، وبهم نُعرف، وأضيف بأن المرء بأعدائه كذلك، يقاس بخصومه ويوزن بهم!.

الرافعي في وحي القلم يخبرنا أن "كما يضر أهل الشر غيرهم عندما يفعلون الشر، يضر أهل الخير غيرهم كذلك عندما يتوقفون عن فعل الخير"، وفعل الخير ليس دائمًا موضع إعجاب وتقدير، هناك من يرى في الخير الذي تقوم به كشفًا لعيوبه ومساوئه، فيحاول أن ينال منك كي تتساوى الرؤوس والهامات، فتجد نفسك وأنت تقوم بالخير – يا للعجب – في قلب المعركة.

وعليك إن شئت أن تعيد النظر إلى سير الأنبياء، والصالحين، والمصلحين، لن تجد منهم شخصًا واحدًا كان مثار اتفاق وتأييد من الجميع، بل على العكس ستجد حياتهم حربًا ضروسًا من أجل تأكيد الخير الذي جاءوا به، نبي الله نوح ظل ألف عام يُسخر منه، وزكريا عليه السلام أهدي رأسه إلى بغي من بغايا بني إسرائيل، ولاقى موسى وعيسى ويونس ويوسف عليهم السلام الأمرّين وهم حملة لواء الحق، أما النبي الخاتم

محمد صلى الله عليه وسلم فبلاؤه كان أعظم، وأعداؤه لم يكونوا قلة.

غاندي، مارتن لوثر كيج، مالكوم إكس، أزهقت أرواحهم وهم يحاولون صنع فارق إيجابي في حياة من حولهم، ومانديلا قضى من عمره ما يزيد عن الربع قرن سجينًا، وهو الذي أراد الحرية لبني وطنه.

هل تريد الخير لنفسك، وللناس؟. تجهز إذن لخوض معركة الحياة، ولا تستوحش عقبات الطريق، ولا يفزعنك كيد وحقد وسوء بعض بني الإنسان، فعلى هذا مضت سنة الله في الأرض. ضف فوق ذلك أن الأعداء ليسوا شرًا خالصًا، إنهم يمنحوننا كثيرًا من القوة، وكثيرًا من الحذر، وكثيرًا من الانتباه!. عالم النفس السويسري الشهير "جان بياجيه" يؤكّد أن الصراع جزء من طبيعة الحياة، كما يشدد على أننا يجب أن نؤهل أبناءنا وهم صغار على دخول المعركة، مؤكدا أن معارك الطفل مع الأقران ثم الأهل تعلّم الطفل التأقلم مع العالم، وتنمية استراتيجيات تمكّنه من التعامل مع المشكلات، بينما تعليم

الأطفال تجنُّب الصراع بأي ثمن، يذهب بهم إلى أن يصبحوا معوّقين اجتماعيا وعقليا، والأمر نفسه يمكن ترجمته على الكبار؛ فخوض المعارك من أجل ما نؤمن هو جزء من اتّساع وعينا، وإثراء خبراتنا، خاصة إذا كان المقابل هو الخوف والرهبة والإجفال، فهذا مما يتعارض مع تحقيق وجودنا الكامل والصحيح في الحياة!.

صدقني يا صاحبي، إن وجود خصم عنيد في أعقابك لهو شيء مفيد، لأنه يكشف أوجه قصورك، يعيدك سريعًا إلى الطريق الصائب، خوفك من تمكنه منك يجعل أخطاءك أقل، ويجعل انتباهك لموضع قدمك أكثر حذرًا.

وكلما كنت كبيرًا، كلما كان أعداؤك أعداء أفكارك حتى وإن وجهوا سهام النقد إلى شخصك، النيل من الأفكار أمر صعب لا يقدر عليه الجميع، فترى بعضهم يلتف ليطعن في ذمتك، أو يلمز شرفك، أو يلقي بذرة الشك حول أخلاقك وسلوكك، تمامًا كما حاول رأس النفاق "عبد الله بن أبي" أن يفعلها مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في حادثة الإفك،

عليك هنا أن لا تقع في الشرك، لا تتألم للخسة التي قد تصل بالبعض إلى درجة تحويل الصراع إلى معركة غير شريفة، لم يسلم عِرض ولا شرف العظماء من مثل هذا الحروب، فلا تبتئس.

ولعل من نافلة القول التأكيد على أن حتمية وجود الأعداء لا يعني أن نستسلم لهم، وإنما المدافعة، والصدام، والانتقام منه!.

نعم، أقسى انتقام يمكن أن تؤلم به عدوك أن تذبحه بسكين بارد، تتلقى ضرباته فتجعلها وقودًا لك يساعدك على الارتقاء، لو كانت ضربته صائبة ونقده حقيقي جعلت هذا النقد – على حرارته – معينًا لك في كشف جوانب تقصيرك، فترتقي من حيث أراد لك السقوط، وإن كان نقده جائرًا، وحربه قذرة كان نجاحك وصعودك فضحًا له ولما يقول، فأنت في الحالتين الرابح.

أعلم أن الأمور ليست بالسهولة التي قد تجري بها الكلمات على الورق، لكن لا سبيل ولا مهرب من أن نتجهز

للأمر، ونعد له عدته، جزء كبير من أزمتنا أننا نهمل الاستعداد للمعارك القادمة، نظن بأن الخير الذي نحمله في قلوبنا للناس سيكون عاصم لنا من تلقي ضرباتهم وغدراتهم، فتصيبنا حينها الضربات بصدمة قاسية، وربما جعلتنا نتشكك في الخير الذي نحمله، والدور الذي قررنا يومًا ما أن نقوم به في الحياة وهذا لو تدري غاية منى الأعداء، وجل مطلبهم.

****

لماذا الأسد ملك الغابة!؟

بهذا السؤال فتح ولدي مهند – ذو التسع سنوات – باب النقاش، متسائلًا عن السبب الذي دفع الأسد إلى سدة المُلك دون غيره من الحيوانات!. أضاف في تشكك: الفهد أسرع منه إن كانت السرعة هي المقياس، والقرد أكثر خفة في التسلق والمراوغة، والثعلب كما أخبرتموني هو الأكثر خبثًا ودهاءً، وإن وضعنا معيار الحجم على الطاولة فلا أظن أن الفيل سيترك حقه إذن.

هززت رأسي متفهمًا قبل أن أقول له: سؤال وجيه، دعني أنهي ما في يدي من أعمال، ثم لنجلس سويًا في المكتبة لنصل إلى إجابة سؤالك.

مذ قرأت عن أهمية أن نُعلم أبناءنا التساؤل وإرشادهم إلى طرق علمية صحيحة يفتشون فيها عن الإجابات الموثقة وصار التمهل ديدني عند إجابتي على أسئلة أطفالي، فليس هناك أخطر من الحلول السريعة التي تقف كعقبة كئودًا أمام إعمال عضلة العقل والتفكر، كما أن فكرة الأب الذي يعرف كل شيء، باتت من التراث الفاسد الذي نحتاج إلى دفنه بعدما أسلمنا إلى واقعنا الذي نعيشه ونتعذب به، علينا دائما أن نُشعر أبناءنا أن الإجابة حاضرة مع بعض الجهد، وأن هناك ثمة حلاوة في البحث والتنقيب، وهذا ما قررت فعله مع صغيري في ذلك اليوم.

ساعة أو يزيد مرت قبل أن يأتيني مهند ثانية بدفتر الرسم خاصته يخبرني بأنه قد اجتهد في إجابة سؤاله السابق، وأنه قد رسم لي السيناريو المتوقع، الذي جعل من الملك أسدًا للغابة!.

وضع الدفتر أمامي ثم بدأ في القراءة وهو يقلب الصفحات قائلًا في حماسة: يُروى في قديم الزمان أن كانت الحيوانات تعيش مع بني الإنسان ومع الوقت بدأت الحيوانات تضيق

بسلوك الإنسان السيئ وتشعر بالألم من تصرفاته وكان أكثر الحيوانات ضيقًا مما يحدث هو الأسد الذي اختلى بنفسه بعيدًا وهو يفكر في طريقة ليرتاح هو وباقي الحيوانات من إزعاج بني البشر وبينما هو حزين إذ وجد كنزًا من المال والذهب مدفونًا في الأرض أخذ الأسد الكنز واشترى خارج المدينة قطعة أرض كبيرة مزروعة بالأشجار ودعا كل الحيوانات ليعيشوا معه في تلك الأرض التي سماها "الغابة" وهكذا أصبح الأسد ملك الغابة بفلوسه!!!.

نعم هذا ما تفتق عنه ذهن صغيري الذي لم يخبر من الحياة إلا وجهها البريء، ولم يرتد ثياب الكفاح بعد فظن بأن المال هو الذي وضع الأسد على كرسي المُلك، وهو لا غيره سبب الفخر والعز الذي يرتع فيه!.

كانت صدمتي بكلماته كبيرة، وضعتني أمام حقيقة أن ما ننفقه في تربية أبنائنا يمكن أن يضيع ونحن في غفلة، وكيف لا ومثلي يزعم بأنه يولي للجانب التربوي والقيمي حجمًا لا بأس

به في تربية أبنائه، ولا أظنني يومًا قلت له بأن المال هو الذي يرفع الناس، ويبني لهم المجد والشرف.

جاء مهند بقصته البسيطة ليقول لي أحد أهم دروس الحياة، وهي أن التربية شيء آخر غير ما أقوله وأردده على أذنيه صباح مساء، التربية التي تصوغ الوجدان تحدث على طاولة الطعام وتتجذر بحوارنا الأسري الذي قد ننهمك فيه نحن الكبار دون أن ننتبه إلى أذن الصغير المصغية وفؤاده المتجهز للالتقاط والتخزين.

كم مرة رآني أحدث أمه عن وضعنا المالي؟.

كم مرة لمح البِشر على محياي وأنا أتحدث عن رصيدي البنكي؟!.

كم مرة رأى القلق يخيم فوق رأس والديه وهم يحسبون مدخراتهم، ويُقسمونها، ويعيدون التقسيم حتى تعتدل كفة الميزانية؟.

هذا في أمر المال، وإنه لو تدري هين أمام أمور أخرى!!.

أتراني أخبرته يومًا – بلسان الحال أعني – أن الجُبن، والخوف، هما طريقا السلامة الأقرب؟!.

هل تُراني نزعت ما زرعته فيه من حب الله برؤيته لي يومًا أخاف غير خالقي!.

الرافعي في وحي القلم يخبرنا أن "رؤية الكبار شجعان، هي وحدها الكفيلة بجعل الصغار شجعان"، وكأنه يترك لي إكمال جملته بأن رؤيتهم جبناء هي الطريقة المثلى لجعلهم جبناء خائفين، غير جديرين بلعب دورهم الحقيقي في الحياة. الآن باتت مسئوليتي صعبة جدًا

في زمن لا يقبل رواده التنظير الجاف بات الواحد منا مجبرًا على أن يجعل من سلوكه ترجمة حقيقية لما يؤمن به، وعليه صرت مدفوعًا إلى أن أُري لصغيري مهند أن لا شيء في الدنيا يرهبنا كالخوف من الله

وأن الله خلق الإنسان حرًا فلا يجب أبدًا أن يُستعبد، أو يسمح لغيره أن يملك رقبته.

وأن رأس مال المرء منا بعد هناء ضميره، في مواقفه المُشرفة، وكفاحه النبيل، ومشواره الشريف.

بحاجة إلى أن أترجم كل ما قلته له – ظانًا بأني أربيه – إلى سلوك واضح، فالمواقف أبلغ كثيرًا من سيل الكلمات، والأوامر والنواهي

ولا يمنع كل هذا من أن أخبره بلسان المقال أيضًا أن الحياة جميلة بتدافع أهلها، وأن التعب هو ثمن النجاح الذي يجب دفعه مُقدمًا، وأن المال وسيلة لبلوغ الغاية، لكنه غير قادر على جعلنا سعداء، ولا هانئين كما أنه لا يملك أن يجعل الأسد.. ملك الغابة!!.

****

إنسان استثنائي

ثلاثة عقود من الزمن هما الفترة ما بين وقوف محمد صلى الله عليه وسلم بين أهله ليصرح لهم بأنه قد بُعث نبيًا من الله ورسولا، وحتى سيطرة أتباعه على آخر معقل فارسي، وهزيمة القوات الرومية فقط عقود ثلاثة هي المدة التي احتاجها الدين الجديد كي يفرض سطوته على العالم، وينشئ إمبراطورية من العدم، ويجعل من بدو الصحراء ملوكًا للدنيا. فكيف حدث هذا ..؟

البعض يعيد هذا النصر الكبير إلى تلك العقيدة الحارة التي تكتنف المسلم المجاهد، تلك العقيدة التي تدفعه لإلقاء بضع تمرات في يده بحجة أنها تقف عائقًا أمام سرعة دخوله جنة ربه،

ولقيا موعود الله لعبادة الصالحين المجاهدين. البعض الآخر يرى بأن تلك الفترة هيئ لها قادة عظام، وعباقرة في مجال التخطيط العسكري والقيادة، مما كان له بالغ الأثر في الانتصارات المتتالية.

وهناك أيضًا من يرجع الأمر إلى قوة السيف، ذلك السلاح الذي ألقي في يد بدو الصحراء، وقد غمس بعقيدة دينية حارة، وهذا مذهب به من الشطط الأمر الكثير، فالسلاح وإن كان قادرًا على فتح البلاد، إلا أنه يقف حجر عثرة أمام فتح القلوب والنفوس، ولن يكمل الزمان دورته إلا بردة كبيرة تنهي إمبراطورية السيف، لتعود العقائد المختبئة للظهور على السطح مرة أخرى، وهو ما لم يحدث في أمة الإسلام، فجل المناطق التي أسلمت في القرن الأول الهجري لا زالت على عقيدتها حتى اليوم.

فما الذي فعله محمد صلى الله عليه وسلم إذن في نفوس أصحابه، ليجعل منهم ملوكًا زاهدين في العرش، وقادة لا يأبهون بمجد شخصي ..؟

والحقيقة أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يخرج للدنيا قادة استثنائيين بقدر ما أخرج مواطنين استثنائيين!.

استراتيجية محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن قائمة على إقامة مُلك متماسك يُقيم أركانه قادة أفذاذ، وإنما قامت على جعل كل شخص من أتباع دعوته يؤمن بنفسه بعدما يؤمن بالله، ويحارب من أجل حقه بعدما يؤدي حق الله، ويقيس عزة نفسه وكرامته بمقياس الحق والعدل، ويأبى الظلم والرضوخ والعبودية، ويرفض الخداع

ومثل هؤلاء يصعب جدًا كسرهم وهزيمتهم، حتى وإن دارت عليهم الأيام، وأدار الزمان لهم ظهره لبعض الوقت.

ولذلك كان معروفًا عن المسلمين في زمن النقاء، زمن الخلافة الراشدة، أنهم قوم تمضي كلمة أدناهم على أعلاهم، وتلك لو تدري هي المُعبر الحقيقي عن كرامة الشعوب، واحترام المواطن.

وفي المشهد القادم ثمة إيضاح لما فعلته تعاليم محمد في أتباعه.

نحن الآن في دار الخلافة

هنا المدينة المنورة وقد جاء نبأ سيطرة المسلمين على بلاد فارس، في تلك اللحظة الحاسمة الفارقة، وقف عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، والذي بطبيعة الحال صار اسمه علمًا في كل بلاد الدنيا كرجل يملك الأمر والنهي في أكبر رقعة متماسكة على سطح الأرض

وقف عمر على المنبر نظر إلى جموع الناس في مسجد رسول الله متواضع البنيان، ثم حمد الله وقال: أيها المسلمون اسمعوا وأطيعوا..

وهنا، وقف رجل ليقول له: لا يا عمر لا سمع لك ولا طاعة!.

ما تم توثيقه عن تلك الحادثة يخبرنا أن الرجل بعدما قال كلمته لم يقاطعه أحد، كما أنه لم يكن هناك ثمة حرس يرصدون المُخالف، كذلك فإن عمر لم يغضب وإنما اعترته الدهشة وهو يسأل: لماذا يرحمك الله؟!.

أضف فوق هذا أن التاريخ لم يخبرنا باسم الرجل، ولا منصبه، كل ما ذُكر عنه أنه قال كلمته تلك، ثم أجاب في قوة مجيبًا عن استفسار عمر: انظر لثيابك!.. لقد قسمت لنا من القماش الذي أتى لبيت المال أنصبة واتخذت لنفسك نصيبًا أكبر ودليلي هو ثوبك الفضفاض الذي لا يكفي نصيبك أبدًا أن يأتي به!.

وبعدما أنهى الرجل كلامه، توجهت العيون إلى عمر.. نعم.. هناك اعتراض منطقي يحتاج إلى تفسير، وعليه نظر عمر إلى ولده عبد الله وقال له: رد أنت. فقام عبد الله ووضح أن أباه رجل ضخم الجثة مما جعل قطعة القماش التي أعطيت له غير ذات نفع، وعليه، فقد أعطاه نصيبه من القماش، وبالتالي ما يرتديه عمر الآن هو نصيبه مضاف إليه نصيب ولده عبد الله. وعند هذه النقطة، قال الرجل المُعترض: الآن نسمع ونطيع !.

الحادثة السابقة جد هامة في فهم العلاقة التي يحكمها الوعي.

فهذا حاكم حقق انتصارات عظيمة مُعجزة، وذاك محكوم يدرك جيدًا حقه ويأبى أن يتم خداعه أو إلهائه عن المطالبة بهذا الحق.

فالنصر الذي تحققه الجيوش، والإنجازات التي تتم في عهد الرئيس ليست أبدًا مبررًا كي نغض الطرف عما نكره، ولا يجب التلهي بها عن المطالبة بحق الشعب، حتى وإن كان الانتصار

بحجم الإطاحة بأكبر قوة في العالم، وكان الحق كسرة خبز أو متر قماش!.

هذا الرجل الذي قد نراه شجاعًا مقدامًا لم يكن أكثر من رجل من العامة، مارس حقًا عاديًا ومنطقيًا، أخبره به وعلمه إياه وأكد عليه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

هذا الرجل الذي ربما لم يأنس الخط يومًا هو الدليل الدامغ على أن رسالة محمد كانت رسالة وعي، ذلك أن كلمة التوحيد ذاتها تبدأ بكلمة "لا"، تلك الكلمة المزعجة المشاكسة الباعثة على التمرد، الرافضة لهيمنة قوى الباطل وسيطرته.

هذا الرجل أنموذج للمواطن الاستثنائي الذي رباه محمد صلى الله عليه وسلم، فطنٌ لا يُخدع بالأغنيات الوطنية، ولا الشعارات الرنانة، ولم يعرف إسلام الدراويش أو مبدأ إيثار السلامة، ولا فقه "الحاكم المتغلب"

مواطن يأبى أن تصبح معارضته للظلم شكوى عاجز، فضلًا عن البحث عن حجة لتأييد ذلك الباطل هربًا من بطشه وغضبته.

وإلى أن نجد هذا المواطن الاستثنائي، الذي يقف في شجاعة مطالبًا بحقه، رافضًا كل محاولات الترويض والاستئناس والاستحمار، فإننا سنظل في التيه

****

الأنبياء الكذبة

"احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان، لكنهم من الداخل ذئاب خاطفة، من ثمارهم تعرفونهم.."

شكلت هذه العبارة التي تُنسب إلى المسيح عيسى عليه السلام جزءً من الحصانة التي أمضي بها في الحياة، هناك لا ريب من يبطن عكس ما يُظهر، ولا يحق لي أن أجزع كلما قابلت أحدهم، أو أن أضيع وقتي في الشكوى والتذمر.

خصوصًا وأنه – عليه السلام – أوضح لنا طريقة يمكننا من خلالها أن نكشف مثل هؤلاء، وهي ثمارهم التي لا ريب ستنبت مع الوقت، وتظهر في سلوك وأفعال تنبئ عن حقيقتهم المخبوءة.

بيد أن هناك إشكالية أخرى ظهرت لي، معضلة توقف ذهني لبعض الوقت في محاولة لفهمها واستيعابها، وهي مشكلة هؤلاء الأمناء الشرفاء الشجعان، الذين قضوا من أعمارهم شطرًا غير هين في تسويق أنفسهم كأصحاب فضائل، ثم نراهم فجأة يبيعون كل ماضيهم ويسيرون في عكس الاتجاه!.

نعم أتعجب – وحق لمثلي العجب – إذ أرى الرجل الأمين يخون، والشجاع يجبن، والصادق يكذب.

لماذا ضرب هؤلاء صفحًا عن فضائلهم السابقة، واختاروا لأنفسهم طريقا آخر.

وتزيد حيرتي إذ يرفض عقلي فكرة الكذب أو الرياء، هؤلاء بلا شك لم يراءوا الناس بفضائلهم، إنهم ليسوا من طائفة "الأنبياء الكذبة"، فثمارهم طوال أعمارهم تنبئ عن أصالة، وقناعة بما يحملون، وصدق في توكيد ما يدعون إليه، وبعضهم دفع ثمنًا قد يجبن أحدنا عن دفعه في سبيل الدفاع عن المبدأ الذي نكص عنه اليوم وصار معاديا له! فما الذي حدث؟!.

وغالب الظن أن القضية كلها تكمن في أمرين

أما الأول فهو الفارق الكبير بين الرجل الشريف والرجل الذي يتحلى بالشرف !.

مكتبة الرمحي أحمد

بين من تصبح القيم هي دمه وروحه وجوهر وجوده، وبين من يرى في القيم ثمة مميزات فيختار أن يكون فاضلًا ليجنيها.

بين من يتعامل مع الفضائل كوسيلة مواصلات جيدة، يركبها حين يحتاج إليها وينزل عنها حينما يجد وسيلة أخرى أكثر ملائمة، وبين من كانت الفضيلة هي قدمه، تمضي به في ثبات نحو ما قرر وأراد.

هذه الفرضية تضعنا أمام فكرة قد تبدو غريبة نوعا ما، وهي أن البعض قد يحارب مناصرًا قضية ليست قضيته الحقيقية، هو فقط مُعجب بها، أو قد يجد التقدير والثناء من الناس حينما يدافع عنها فيطيب له الاستمرار فيها، لكنه في لحظة ما وغالبا ما تكون هذه اللحظة محورية وحاسمة ينقلب

صاحبنا على كل ماضيه، وما بين دهشة البعض وألم واستهجان، ومهاجمة البعض الآخر، لا ينتبه الجميع إلى أن الرجل في حقيقته لم يكن منتميا للقضية بالشكل الكافي، كل ما في الأمر أنها قد راقت له ردحًا من الزمن، ثم انتهى الأمر!.

تأمل معي جيدًا نماذج عدة ممن انقلبوا على مبادئهم وما أكثرهم حولنا الآن

الصحفي، وعالم الدين، والسياسي، والمفكر، والأستاذ الجامعي، والقاضي نماذج لن يتعب ذهنك في استحضارها، ستجد أنها ناضلت كثيرًا وطويلًا، من أجل الحق والحرية والكرامة، بينما هي اليوم لا تجد حرجًا من الدفاع عن عكس كل هذا.

صدقني بعض هؤلاء لم يكونوا كاذبين، كانوا مُعجبين بإعجابنا بهم ثم انتهى الأمر.

ذا تفسيري الأول أما تفسيري الثاني فيذهب إلى أن هؤلاء – أو بعضهم – كانوا عظماء، وشجعانًا، لأنهم لم يُختبروا..!

نعم فكل البشر أمناء شرفاء صادقون، حتى يُختبروا، وعند الاختبار يظهر المعدن الأصلي، تصبح الصورة أكثر وضوحًا.

والاختبار قد يكون فتنة سراء أو ضراء سوط جلاد أو شيك على بياض تهديد بالسجن أو وعد بكرسي وزارة المهم هنا أنه خاطب فيهم نقطة الضعف التي عاشوا دهرًا يخفونها عنا.

قالوا قديما: " لا تحكم على طباع أحد حتى تجربة وقت الغضب"، فحسن المعشر واللطف أمور يسيرة حال صفاء البال، لكنها بعيدة عن الرجل الغاضب، اللهم إلا إذا كان لديه من الانضباط والنضج الشيء الكثير.

وعليه أقول، ولا تحكم على شخص حتى تراه حال الفتنة، فحينها يظهر المخبوء من الضمير.

بقي أن أقول

إننا لا نحكم على الناس بقدر ما نتعلم من دوران الدهر عليهم، وتبدل أحوالهم ولذا صار لزامًا علينا أن نعي جيدًا أهمية أن لا نحسن الظن في أنفسنا كثيرًا، أن يكون لدينا نوع من الخوف المحمود من أن تكسرنا فتنة فنبيع يومًا ما عشنا دهرًا نحارب من أجله، وأن علينا أيضًا أن نراجع صدق دوافعنا وحقيقة إيماننا بما ندعوا إليه

فإننا في زمن العجائب هذا لسنا في مأمن والله!.

****

مجتمع غير عقلاني

يعد ألبرت إليس (Albert Ellis) أحد أهم علماء النفس المعاصرين، فالكاتب الأميركي الذي ولد عام 1913 وفارقنا في عام 2007، كان له فضل كبير في تبصيرنا بخطورة الأفكار اللاعقلانية في حياة الإنسان، وكيف يمكن أن يؤمن المرء منا بفكرة لا منطقية، ويدافع عنها بحرارة كبيرة، لا لشيء إلا لأنه قد تمركز حولها، وساعدت البيئة أو التربية أو وسائل الإعلام على ترسيخها ومن ثم تسويقها على أنها أفكار عادية ومقبولة!.

ويقصد بالأفكار اللاعقلانية تلك التصورات اللا منطقية، التي يحكم من خلالها المرء على الغالب الأعم من الأحداث

التي تمر به، والتي تورثه حالة دائمة من السلبية أو التواكل أو التشاؤم.

ووفق نظريته في العلاج النفسي فقد أكد "إليس" إلى أن البشر ينقسمون إلى نوعين، أشخاص عقلانيين تستخدم نمط تفكير علمي ومنطقي وواعٍ، وأشخاص غير عقلانيين ينتهجون أسلوب غير منطقي، يتجه إلى تحليل الأمور وفق معتقدات تخالف وتضاد أبجديات العقل السليم ومبادئ التفكير العلمي.

فعلى سبيل المثال يرى "إليس" أن مجموعة كبيرة من البشر تتجنب مواجهة المشكلات، لاعتقادهم – اللاعقلاني – أن تجنب المشكلة هو أقرب الطرق إلى الراحة، وذلك لأن المواجهة تفرز معارك والمعارك غير مأمونة الجانب، وبالتالي الانسحاب وتجنب الدخول في المعترك هو الحل، يرى كذلك أن المثالية الزائدة التي يعيش فيها البعض خطر– ، ففكرة مثل "يجب أن أنجز أعمالي بلا أي أخطاء، أو يجب أن أكون محبوبًا

من كل الناس" هي أفكار لا منطقية ولا يمكن تحقيقها وبالتالي محاولة الوصول إليها يعد أمرًا مستحيلًا.

والخطورة تتأتى من أن تبني مثل هذه الأفكار تُسلم أصحابها في الأخير إلى فكرة الانهزامية، وتسحق لديهم نوازع الهمة والتحدي، وقد تدفعهم إلى قبول الظلم والتكيف معه، وربما أكثر من ذلك، كتبريره والدفاع عنه!.

وبالرغم من أن نظرية "ألبرت إليس" موجه إلى علاج الأفراد في أصلها، إلا أننا نحتاج إلى استدعائها لتفسر لنا جزءً كبيرًا مما نحن فيه، فبنظرة تأمل بسيطة يمكننا أن نعزو كثيرًا من أزمات مجتمعاتنا العربية – والمصرية على وجه الخصوص – إلى مجموعة الأفكار اللاعقلانية التي تتبناها تلك المجتمعات وتعمل عملها في هدم ثقتها بأنفسها، وتسلمها إلى حالة الذهول عن وضعها المتردي الذي تعاني منه منذ قرون!.

وأقصد هنا مجموعة الأفكار التي تَرسخت في العقل الجمعي، وتؤثر على رؤية المجتمع لذاته، وتصيبه بحالة من

الدونية، والرضى بالذل والخنوع، كفكرة أن الشعوب العربية غير قابلة للتجارب الديمقراطية، وأن العرب قوم لا يجدي معهم إلا سوط الجلاد، وأحكام الطاغية العادل!.

ولأن الأفكار اللاعقلانية تحتاج إلى دعائم تشد من أزرها وتعطيها لونًا من القابلية، دأب أجدادنا إلى ترديد أمثال وحِكم شعبية ترسخ لتلك الأفكار، فنسمع من يقول في لهجة الحكيم بأن "المساواة في الظلم عدل"، وآخر ينصحك بالمداهنة وقبول الذل بحجة "إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدي"، أو التي تجنح بك إلى الطاعة العمياء حتى وإن خالف سلوكك ما تؤمن به لأن عليك أن "تربط الحمار كما يحب صاحبه"

عد إلى تراثنا الشعبي واستحضر عقلك وأخبرني عن المنطق الذي أخرج الحكمة العبقرية التي تحذرنا من أن "القانون لا يحمي المغفلين!"، فلماذا وضع القانون إذن؟، وما دوره إن كان الطيب أو حسن النية أو حتى المغفل ليس له في دنيا الناس حق ولا يحميه قانون؟!.

وتمتد الحكم والأمثال الداعمة للفكر اللاعقلاني لتحاصر كل من أراد التمرد على واقعنا المتردي، أو بحث عن طريق مختلف أو دعا بغير ما يدعو به الناس، فنجد من ينصحه بأن "يمد لحافه على أد رجليه"، وأن يتسلح بالسلامة لأن "الباب اللي ييجي منه الريح سده واستريح"!.

وتالله، إن مجتمعًا يدافع عن خموله وسلبيته بحجة أن الحياة عشوائية مؤكدًا ذلك بأنها "تعطي الحلق للي بلا ودان"، وأن "رزق الهبل على المجانين"، لهو مجتمع يحتاج إلى صدمات من المنطق، وجلسات مكثفة من الوعي، وإعادة جادة للبنى المعرفية التي تحكمه وتتحكم فيه.

وهذا هو عين ما يؤكده "ألبرت إليس" وهو يصف روشتة العلاج للأفكار اللاعقلانية بتأكيده على وجوب تحدي هذه الأفكار، مؤكدًا أن العمل على دحضها هو السبيل الأول لتغيير البنية المعرفية للأشخاص، ومن ثم المجتمعات، وأكد كذلك على أهمية الحوار السقراطي الجدلي، فكرة أن تصدم

المعلومة الخاطئة بأختها الصحيحة في محاولة جادة وعنيفة إن اقتضى الأمر كي تكشف زيفها واعوجاج منطقها.

وبقعة الضوء التي يمكن أن ننطلق منها إلى معركة الوعي هم الشباب، ذلك التيار الهادر المتمرد، الذي يشعر بعدم راحة تجاه الموروث اللاعقلاني الذي يطاردهم، ويحاول جاهدًا أن يزرع شجرة الوعي في أرض جرفتها عقود من التجهيل المتعمد.

نعم، إذا كان المرض الذي يشل حركة المجتمع هو تمكن هذه الأفكار اللاعقلانية من السيطرة علينا، فإن العلاج يكمن في ذلك الجيل الرافض لهيمنة تلك المعتقدات على حاضره ومستقبله.

الجيل الصامد في موجهة شراسة اللامنطق، المتجهز لمحاربة جنون الباطل وثورته، والذي يقينا لن يؤمن بأمثال وحكم تتعارض مع نقاء مبادئه، كما أنه لن يعترف أبدًا بسياسة الأمر الواقع، وأن من "يتزوج أمي يجب أن أقول له يا عمي!!"

****

متى يصبح الانتحار حلا؟

لا عجب أن يصبح هذا السؤال محل بحث وتمحيص، ففي مجتمع يستيقظ أبناؤه كل يوم على حالة انتحار، يودع صاحبها الحياة ناقمًا كارهًا، صار من العبث أن ندير ظهورنا عن السبب الذي يدفع بهؤلاء إلى كتابة الفصل الأخير من قصتهم على عجل، ويختمون مشوارهم بشكل مأساوي.

لا سيما وأن كثيرًا ممن يقفزون من قطار الحياة يأخذون قرارهم هذا على مهل، ويكون التنفيذ – رغم مفاجأته للمحيطين بهم – أمرًا مفروغًا منه، ما يعني أن المنتحر لا يموت إلا بعدما تموت بداخله كل بواعث الأمل، وتتحطم لديه جميع سبل المقاومة والتحدي.

في عام 1965 حاول الباحث الأميركي مارتن سليجمان SLEIGMAN – والذي صار فيما بعد مؤسسًا لما يعرف بعلم النفس الإيجابي – أن يبحث عن الأسباب التي تدفع البعض إلى الانكسار في الحياة، شغلت باله كثيرًا فكرة العجز التي تسيطر على الناس، وتمنعهم من التحدي والمقاومة، ومن ثم تسلمهم في الأخير إلى العيش على هامش الحياة، سلبيين، ناقمين، متذمرين، أو تدفعهم إلى وضع نهاية لحياتهم ومستقبلهم عبر الانتحار.

أتى الرجل بكلب وحبسه في قفص حديدي، ثم بدأ في تعريضه لشحنات كهربائية عنيفة، بطبيعة الحال حاول الكلب أن يهرب من ذلك العذاب، لكن القفص المُحكم أفقده أي أمل في النجاة.

تكررت التجربة إلى أن استسلم الكلب تمامًا للعذاب، حتى عندما تُركت أبواب القفص مفتوحة لم يحاول الكلب أن يهرب،

لقد وقر في داخله أن لا سبيل للنجاة، وأن الألم والعذاب لا محالة واقعين!.

حلل "سليجمان" الأمر بأن الكلب تعلم الاستسلام للصدمة، أغلق داخله باب الأمل في النجاة فكان رد فعله على العذاب هو أن يضع ذيله بين قدميه خائفًا، منتظرًا الساعة التي يمل فيها صاحبه من تعذيبه والعبث به، والأكثر دهشة من هذا أن الكلب صار انهزاميًا حتى خارج القفص، لم يعد يعض أو ينبح أو يقاوم عندما يتعرض للأذى، لقد اكتسب صفة العجز والانهزام، من هنا ولدت نظرية "العجز المكتسب" أو العجز المُتعلم، تلك النظرية التي تُرجع التقهقر والانهزام إلى قناعة داخلية تولدت وكبرت من جراء التعرض المتكرر للهزائم والكبوات.

قناعة أن محاولاتنا لتغيير الواقع السيئ لن تزيدنا إلا فشلًا وإحباطًا، ومن ثم فالاستسلام التام، والتأقلم مع الأمر الواقع هو أسلم الأمور وأكثرها راحة!.

وللأسف الشديد لا يتعلق الأمر فقط بالكلب، ولا يقف عند حدود الحيوانات التي لا تملك عقلًا وتدبيرًا، وإنما لاحظ "سليجمان" أن بني البشر أيضًا لديهم هذا الميل إلى اكتساب العجز وتعلمه!.

الصدمات المتتالية قسوة الواقع التربية غير المنضبطة.. المدارس التي تعلمنا أي شيء إلا النضج ضف فوق هذا التجارب القاسية التي قد يتعرض لها المرء من ظلم أو تعدٍ، كل هذا قادر على أن يجعل خوفنا من الفشل هائلًا ورهبتنا من المحاولة دافعًا جوهريًا للسكون والرهبة والارتباك الدائمين، وعند هذه النقطة يبدأ البشر في التساقط، إما نفسيًا وأخلاقيًا.. فترى الواحد منهم قد أنس الذل وتعود عليه، وفقد أي قدرة على دفعه ورفضه.

أو جسديًا حيث يذهب البعض الآخر إلى إنهاء حياته عله يُنهي معها عذابه وألمه الدائمين.

الأخطر من كل هذا حين يصبح "العجز المكتسب" قانون حياة بالنسبة للعاجز، فنراه يرفض التغيير الذي من شأنه أن يرفع الظلم الواقع عليه، فتراه يلجأ مختارًا إلى الظالم، يطوف حوله كطواف العابد حول كعبته، يشعر بغربة نفسية حين تعطيه حريته لبعض الوقت، يرتبك إذا ما وضع في بيئة صحية نظيفة!.

ولدينا في التاريخ القريب حدث هام في هذا الباب، فعندما قام الرئيس الأميركي أبراهام لينكولن بإلغاء الرق والعبودية في أميركا عام 1865، لوحظ أن هناك عددًا لا بأس به ممن تحرروا من الرق قرروا العودة إلى ساداتهم مرة أخرى، إنهم لم يستطيعوا أن يتعايشوا مع فكرة كونهم أحرارًا، يملكون حق تقرير مصائرهم، وعليهم أن يتخذوا قرارات تتعلق بحاضرهم ومستقبلهم.

ما الحل إذن ..؟

إننا لن نستطيع أن نزرع الأمل في النفوس، ولن نقدر على تقديم يد العون لشخص قرر أن يعيش عاجزًا ما لم نتفهم حالته ابتداءً.

أن نتفهم مدى البؤس المحيط به، بلا شك أنت تدرك جيدًا الفرق بين أن نتفهم وأن نقبل!.

الأولى تعني أننا نتعامل مع شخص معتل، وفهمنا له سيدفعنا إلى عدم رفضه، حتى وإن رفضنا سلوكه، مما سيجعل تعاملنا معه أشبه بتعامل الطبيب مع المريض، نحتمل عوار منطقه، وشطحات تفكيره، وانغلاق ذهنه عن إدراك المنطق السديد.

ثم نأتي للمرحلة الثانية وهي إشعال فتيل الأمل بداخله، مخاطبة المشاعر في المقام الأول، وضعه أمام حقيقة أنه ولد حرًا، فلا يجب أن يقبل الذل، خلق لغاية فلا يحق له أن يعيش من أجل تحقيق غايات الآخرين، جاء لهدف، ومن الخيانة أن

يبيع حياته بثمن بخس، ويرحل عن الحياة صفرًا من الخير والصلاح.

هذا الأمل الذي دفع ببلال بن رباح أن يتحمل عذاب قريش..

وهو الأمل الذي أغلق عين وحشي أن ترى غير حمزة يوم أحد..

وعندما يتسلل شعاع الأمل إلى نفس اليائس سيصيب عجزه المكتسب زلزال التشكك، وسيصبح أمر تمرده ورفضه مسألة وقت

إننا وإن كنا نرفض الانتحار الجسدي كونه خيانة لأمانة الله، وسوء ظن بحكمته وتدبيره، إلا أننا بحاجة إلى فهم أن حولنا كثر قد انتحرت إرادتهم، وشنقوا بحبال عجزهم المكتسب دوافع الهمة والإصرار لديهم، وهؤلاء يا صاحبي بحاجة إليك.

بحاجة إلى خطاب غير خطاب اليأس، بحاجة إلى رؤية أنموذج حقيقي يستلهم منه الأمل والتحدي.

وأختم معك بواقعة حدثت لي قبل عامين علمتني الكثير

كنت وقتها في زيارة إلى أحد المراكز الخاصة بالمكفوفين، يومها وقفت أتحدث عن الإصرار، والعزيمة، كنت أحاول التخفيف من وجع أصدقائي ممن لا يملكون القدرة على أن يُبصروا ما أُبصره، أو هكذا كنت أظن.

حينها وقف أحدهم وابتسامته الهادئة تنير وجهه قائلا لي: شكر الله لك كلامك يا سيدي ولكن

إن كان عجز البصر يُضعف حركتنا، فعجز البصيرة يشل حركة الملايين ممن يركضون في الحياة.

يا سيدي نحن في عجز اختاره الله لنا، وما لنا له دفع إلا الصبر.

ولكن ما بال العجزة الذين اختاروا عجزهم بأنفسهم ..!؟

أليس موات الهمة عجزًا ..؟!

أليس التصفيق للباطل عجزًا ..؟!

أليس الرضا بالقعود عن بلوغ الغاية عجزًا ..؟!.

أليس إدارة الظهر عن نصرة المظلوم عجزًا ..؟!.

عزاؤنا يا سيدي أن عجزنا لا نحاسب عليه ويحاسبون ولا نؤاخذ به ويؤاخذون ولا نُعذب به ويُعذبون

يكفي أننا نقول الحمد لله، ولا يقولون

****

معركة شخصية

قبل أيام حاول أحدهم أن ينال مني في تعليق كتبه على شبكة التواصل الاجتماعي "فيس بوك"

ما أحمق هؤلاء الذين يختبئون خلف لوحة الأزرار، ويظنون أنهم في مأمن من انتقامنا!.

لقد ظن هذا المفتون أنني لقمة سائغة يمكن أن يلوكها بسهولة، كانت عباراته قاسية، ومنطقه معوجًا، وأخلاقه في إجازة مفتوحة، لم يدرك أن صناعة الكلمات مهنتي، واللعب بالحروف أسهل عندي من حك أنفي.

لقد عبث مع الشخص الخطأ، وآن أوان دفع الثمن

هكذا قلت لنفسي وأنا أمسك بلوحة المفاتيح "الكيبورد"، وأبدأ في صياغة رد يوقفه عند حده!.

وقبل أن أخط أول كلمة جاءني صوت زوجتي تطلب مني أن أساعدها في تبديل اسطوانة الغاز التي فرغت قبل أن تكمل وجبة الغداء!، قلت لنفسي "لا بأس سأفعل وأعود للرد على هذا الوغد"، وما كدت أنتهي من مهمتي إلا وأخبرتني زوجتي بأن أمي غاضبة لأنني لم أتصل بها منذ أربعة أيام، وازنت بين أن أتصل بأمي من فوري أو أنهي مهمتي في الرد على غريمي، وطمعًا في ثواب الرحمن ورضا أمي قررت أن أبدأ بالاتصال بها، بضع دقائق أمضيتها في التودد إلى أمي تخللها بعض العتاب الرقيق، انتهى بدعاء منها بأن يوفقني الله وييسر لي الأمور، ويرزقني محبة الناس.

كدت أنسى ما كنت أفعله نعم، إنه ذلك الوقح الذي تجرأ علي، فذهبت مسرعًا إلى جهاز الكمبيوتر، قبل أن يناديني

طفلي ذو الست سنوات، إنه يجد صعوبة في إنهاء واجباته المدرسية، ويحتاجني أن أساعده فيها

قلت لنفسي: لأساعده ثم أعود إلى حلبة النزال، المعركة لم تبدأ بعد!.

أخبرني صغيري أن المعلمة طلبت منه أن يذكر 10 سلوكيات جيدة يمكن أن يقوم بأي منها في فترة لا تزيد عن خمس دقائق!.

أخذنا نفكر في الأمر سويًا حسنا، في خمس دقائق يمكن أن تقول لأمك أنك تحبها، يمكنك أن تُقبل أباك وتخبره أنك تشكره على تعبه من أجلك، يمكن أن تقرأ صفحة من القرآن الكريم، أو تدعو الله أن يكتب الخير لبلدك.

في خمس دقائق أنت قادر على ترتيب غرفتك، أو تلميع حذائك، أوالاتصال بصديق أو قريب لتسأل عنه وتخبره أنك قد اشتقت إليه.

خمس دقائق هي تقريبًا المدة التي تحتاجها لأداء الصلاة، كما أنها مناسبة لسقاية النباتات في شرفة منزلنا.

أرأيت يا صغيري هناك أشياء حسنة كثيرة يمكن للمرء منا أن يفعلها في خمس دقائق، الحب يا ولدي يمكننا التعبير عنه في خمس دقائق وكذلك الشكر والامتنان والاعتذار لكننا نضيع تلك الدقائق الخمس في أشياء كثيرة تافهة

تمنيت أن يعي صديقي هذا الدرس الهام، أشياء كثيرة ينساها أطفال هذا الزمان.

صرت جاهزًا الآن لمعركتي الأهم.. ذهبت مسرعًا إلى جهاز الكمبيوتر وكلي إصرار على جعل هذا الأحمق يعض أصابع الندم عضًا!.

والحقيقة أن ردي لم يأخذ أكثر من خمس دقائق، جعلته بعدها أضحوكة الفيس بوك كله وشفيت غليلي منه

فقط في خمس دقائق!!.

****

لا نامت أعين الجبناء

في سكرات موته بدا واهنًا بشكل لا يُصدق، كان قادرًا على أن يلمح الوجوه الجزعة التي جاءت لتطمئن عليه، لم يستطع جسده المحموم أن يبلغ به وضع القعود، فتحسس جسده بكلتا يديه وابتسم !.

إن جسده المرهق الواهي ليس فيه موضع سليم، لا يوجد شبرٌ واحد على حاله التي خُلق عليها، فالنتوءات والتجاعيد التي خلفتها جروح الحروب التي خاضها تكتب تاريخًا من البسالة والإقدام لا يمكن إنكاره أبدًا.

ومن وسط ابتسامته المغتصبة خرج صوته ضعيفًا وهو ينظر للجمع الملتف حوله قائلا: أليس غريبًا أن أخوض أكثر من

مائة معركة، تنحت كل واحدة منها في جسمي شيئًا من ذكراها، ما بين رمية بسهم وطعنة برمح وضربة بسيف، ثم ها أنا أموت على فراشي هنا بينكم، تمامًا كما تموت البعير!؟.

ثم صمت هنيهة قطعها صوت أنفاسه المتهدجة قبل أن تتحول ابتسامته المُتعبة إلى ضحكة ساخرة أتبعها قائلًا: لا نامت إذن أعين الجبناء!.

أسلم خالد بن الوليد روحه إلى خالقها، بعدما خاض أكثر من مائة معركة – قبل إسلامه وبعدها – دون أن يهزم، كان أنموذجًا فريدًا، ورقمًا صعبًا في القيادة العسكرية مما دعا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يعزله عن قيادة الجيش خشية أن يُفتن الناس في الرجل الذي لا يعرف الهزيمة قط!.

لكن خالدًا أبى أن يرحل دون أن يرسل لنا خلاصة حياة، يخبرنا من خلالها أن الجُبن لا يطيل حياة، كما أن الشجاعة لا تخصم من عداد الأيام شيئًا..

قليلون هم من يدركون هذا الأمر، ندرة بين البشر من يعرفون أن قيمة الحياة الحقيقية تكون بصدامك معها، بتكوين

موقف تجاهها، بالهبوط إلى ميدانها وقد شمرت ساعد الجد كي تكون فيها رائدًا، مُعبرًا عن ذاتك الحقيقية، لا ذاتك التي تم اختيارها لك، أو إجبارك عليها.

والمدهش حقا أنه وبعد وفاة خالد بعقد ونيف، وقف قائد عظيم آخر يهتف في من حوله وقد أعياه قلة الناصر، وخوار المنتمين إلى معسكر الحقيقة، وتشتت الناس بين متطرف وعاجز وصاحب هوى، وقف علي بن أبي طالب يصرخ بلوعة تحمل همًا لا يوصف قائلا "أيا أشباه الرجال ولا رجال (!!) حلوم الأطفال عقول ربات الحجال، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة، والله جرت ندمًا وأعقبت سدمًا.... قاتلكم الله. لقد ملأتم قلبي قيحًا، وشحنتم صدري غيظًا وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع و لكن لا علم له بالحرب، و لكن لا رأي لمن لا يطاع"

وما بين سخرية خالد ولوعة علي – عليهما رضوان الله – يمكننا أن نرى جزءً من أزمتنا الحقيقة، لا في ميدان الحرب

فقط، وإنما في ميدان الحياة كذلك، أزمة الركون إلى حديث النفس الخائفة، وتصديق وسوساتها.

كم من الأشياء كان يجب أن نفعلها يومًا ما، لكن الخوف كان سباقًا، فوضع العراقيل، وأهاج في أرواحنا نوازع الخشية، والرهبة، والتردد؟!.

مكتبة الرمحي أحمد

كم من موقف كان يجب أن نتخذه وقطع الخوف السبيل إليه، من خلال إطلاق نفير الجزع والرعب والارتياب؟!.

إن فراش الموت كثيرًا ما يحمل لنا الإجابة

فراش الموت الذي لو نطق لأخبرنا عن الندم الذي يلاقيه الراحلون من جراء حياة قوضتها سلاسل الخوف والجبن.

فراش الموت يا صاحبي، الذي لو نطق لقال لك ما ود الراحلون أن يقولوه لك.

أن تنظر في عين الخوف ..!

أن تدقق النظر في وجهه الغامض، لأنك حينها فقط ستدرك الحقيقة، حقيقة أن لا عينين للخوف يبصر بهما، ستكتشف – وما أقساها من مفارقة – أننا نتبع وهمًا أعمى يأخذنا للهاوية.

افهم هذا جيدًا ..الخوف هو العاطفة الأشد تدميرًا لحضورك الذهني، ويعد المجهول هو البيئة الملائمة لنموه وتمكنه منك، ولا سبيل لديك سوى تعرية الخوف وفضحه، بكشف زيفه وتسلطه الكاذب عليك..

صدقني، كل ما خشيناه طوال أعمارنا السابقة كان من نسج خيالهم أو خيالنا!

كم من شبح صنعناه وغذيناه وأطلقناه في أرواحنا ليكبر ويتضخم، ويفرض سطوته علينا ؟!

هل تعلم ما الشيء الأكثر مأساوية من خوفنا الدائم ورهبتنا المستمرة؟

هو أن يدفعنا الخوف لنكون غير ما نحن عليه يقوضنا، يمنعنا من النمو الطبيعي، والتعبير الطبيعي، والرقي والانطلاق الطبيعي؟!

ودعني أسألك: هل جربت يومًا أن تقف أمام المرآة وتنظر في عينيك وتبتسم ابتسامة رضا، أؤكد لك أن معظم البشر لا يستطيعون ذلك! سيشعرون أن هذا الواقف أمامهم لا يعبر عنهم! لا يعدو أكثر من شخص صُنع بشكل يرضي الناس ويحقق أملهم هم فيه، ولا يعبر أبدًا عن صفاء نفسه، وجمال روحه، ومبادئه قبل أن تتغير ويطولها الدخن.

دخن الخوف والتردد والجبن..

قرأت يومًا قصة فتى خرج للقتال مع قومه ليصد جيشًا غازيًا، أعطوه سيفًا قصيرًا يناسب حجمه، فهزه بيمينه ثم بكى، وخاطب أباه قائلًا: "إنهم يستصغرون شأني ويعطوني سيفًا قصيرًا!"

فضربه أبوه على كتفه وقال "امض به إلى الأمام؛ يصير طويلًا"!.

نعم امض بثبات نحو أن تكون نفسك، لديك بلا شك قرار أو أكثر تود أن تقوم به، جرب أن تمضي للأمام غير ملتفت.

ستكبر في عين نفسك يقينًا، سيكبر سيف عزيمتك، سيصير حادًا ماضيًا صلبًا، كلما ضربت به وجه الخوف.

حياة واحدة يا صاحبي ستعيشها، فهل من الصواب أن تعيشها على أطراف أصابعك؟!.

****

لا تبع حياتك بالرخيص

للمرء منا ميلادان

ميلاد حين يقتحم بوابة الدنيا بصراخه وأنينه وتوجعه الدال على ضعفه وهوانه، حيث يدون هذا التاريخ في شهادة ميلاده ويُعرف به، ويقاس عليه سن نضجه "الرسمي"

وميلاد حين تتبلور شخصيته، وتتكون ثقافته، وينضج وعيه، ويصالح مبادئه، ويخط طريقه الحقيقي المعبر عنه وعن أحلامه وطموحاته وأمانيه في الحياة.

في ميلاده الأول – المجازي – يعرف الدنيا من خلال التجربة الشخصية. فنراه حين يود التعبير عن شيء ما –

كالعطش مثلا – يبدأ في التشنج والصراخ، وركل قدميه في الهواء، ومع الوقت يبدأ في الانتباه إلى ما يفيد وما لا يفيد، فيعلم مثلا أن صرخة بعينها، أو تعبيرًا معينًا هو الذي يوفر له استجابة إيجابية من الوسط المحيط به، فيبدأ في انتهاج هذا الأسلوب دون غيره، إنه يتعلم من التجربة، وينتبه إلى ما يفيد ويهمل تلقائيا ما لا يفيد.

وفي الميلاد الثاني – الحقيقي – يتعلم من تجربتين، تجربته الشخصية، حيث يتفاعل مع الحياة فيخطئ ويصيب، ويقترب من الحقيقة ويبعد، ويبدأ في جني وتحصيل خبرات ومعارف تفيده في قابل الأيام، وكذلك من خلال تجارب الآخرين، سواء شركاء له في الحياة، أو هؤلاء الذين رحلوا وتركوا لنا أثرًا يدل عليهم، وتاريخًا ننتفع به، وتجارب تحمل الحكمة والعظة.

في الميلاد الأول يرى أساتذة علم النفس أن الطفل الذي يتأخر إدراكه للواقع المحيط به يكون لديه ما يسمى "اضطراب الانتباه" فنراه يخطئ كثيرًا، يتسرع، لا يفكر قبل أن يجيب أو

يتحرك، لا يعي التنبيهات، يؤذي نفسه والمحيطين به، وأرجعوا الأسباب في هذه الأزمة إما إلى ضعف النمو العقلي أو الموروثات الجينية.

أما في الميلاد الثاني، فما الذي يدفع المرء وقد بلغ من العمر ما يؤهله للإدراك الواعي، من أن يكرر الخطأ، ويذهل عن استبصار الطريق الصحيح، ويخطئ وتزل قدمه، فتراه يمضي في الحياة تائهًا على غير هدى، يضرب بمعول جهده هنا وهناك، ويقفز في ميدان العمل والعطاء بغير اتزان أو طريق مرسوم، قفزة هنا وقفزة هناك دون تحقيق نتائج إيجابية حقيقية؟!.

بمعنى آخر لماذا لا نستفيد من تجاربنا السابقة، لماذا لا نتدبر في ما مر بنا من مواقف، لماذا نبدأ في كل مرة الطريق من أوله، ونتناسى تجارب الماضي، والتي دفعنا مقابلها في الغالب ثمناً كبيرًا، وآلمتنا فيها حرارة التجربة؟.

يصبح السؤال أكثر قسوة حين نطرحه قائلين: لماذا في الوقت الذي ينتبه فيه الرضيع الذي لم يأنس المنطق والعقل

يومًا لأخطائه فلا يكررها إلا بما يسمح له نضج ذاكرته، يكرر الكبار الخطأ تلو الآخر بسذاجة وانعدام تركيز.

وإجابة السؤال من وجهة نظري تكمن في أمرين، أما الأول فغياب الهدف والرؤية، والثاني لانعدام ملكة التأمل والتفكر.

فانعدام الهدف يجعل الطرق كلها أمام المرء منا سواءً، فإذا ما تعرض لكبوة في طريق هجره سريعًا ميممًا وجهة شطر طريق آخر، يبدؤه من أوله، فإذا ما وجد فيه تيسيرًا مضى فيه، وإذا واجهته عثرة فعل فعلته الأولى، وتكون خبرته هنا غير مجدية لأنها خبرات متقطعة، دعك من أزمة أخرى يواجهها وهي فقدان ثقته بنفسه، وظنه السيئ في قدراته، وتذمره الدائم من القدر والناس والحياة، وكان الأجدر به أن يختار دربه في المبتدأ بعد كثير تفكير وتدبر، ويمضي فيه بعزم ودأب وإصرار على بلوغ منتهاه، يمضي ويسقط وهو مدرك أن كل ما مر به خبرات سيستفيد منها في قابل الأيام .

هذا في أمر الهدف المفقود والرؤية الغائبة، أما معضلة انعدام ملكة التدبر والتأمل فتلك أزمة دفعنا إليها واقعنا المعاصر بجنونه واضطرابه وسرعته!.

الواقع الذي صور لنا أن الحياة سباق، وفي السباقات لا وقت لدينا لإعادة النظر، ولا التأمل فيما مضى، ولا التدبر فيما فات!.

نخشى إن أعدنا ترتيب أوراقنا أن نتأخر، والشر كل الشر – وفق رؤية المجتمع – فيمن ضيع ساعة أو أكثر يقيم فيها خطواته وينظر فيها إلى ما حققه ويقارنه بما يجب أن يحققه.

أذكر أن قال لي صديق من صعيد مصر أنه عندما جاء إلى القاهرة وركب المترو هبط من العربة يركض، ثم توقف متعجبًا من ركضه الذي لم يجد له مبررًا، لقد ركض مع الراكضين بشكل عفوي، هكذا تمضي جميع أمورنا للأسف الشديد.

في القرآن الكريم يأمرنا ربنا جل اسمه: "ولتنظر نفسٌ ما قدمت لغد"، والنظر إلى الغد هنا لا يتأتى إلا لشخص ملك القدرة على صياغة هدف، وقدرة كذلك على إدارة خطة للوصول إلى هذا الهدف، أضف فوق ذلك الآيات الكثيرة التي يأمرنا فيها ربنا بالتأمل والتدبر، ليس فقط في آلاء الله الطبيعية من سماء وما تحتويه من نجوم وقمر، ولا الأرض بما يخرج منها من نبت وثمر، وإنما أيضًا في أحوال البشر، وتدابير الأيام وتغير الأحوال.

هذا التأمل الذي يوفر لنا ميلادًا ثانيًا حقيقيًا، نرتفع فيه، ونتطور بشكل يليق بما وهبنا الله من عقل وقدرات ومواهب.

يا صاحبي.. ميلادك الحقيقي يوم تقف على حدود شخصيتك، يوم ترفض قوانين الحياة التي تخاصم فطرتك، يوم تقبل التحدي دون تذمر أو غضب، يوم تشق طريقك الذي اخترته لنفسك غير عابئ بصيحات الاستهجان والسخرية.

حين تكون مبادئك هي أهم حليف لديك، وصوت ضميرك هو المشجع الأول لك

ستعرف أنك عشت حياتك الحقيقية حين تغمض عينيك الغمضة الأخيرة مودعًا هذا العالم الصاخب وأنت راضٍ عن نفسك، ممتنًا للحياة راضيًا عن خطواتك فيها، سواء المتعثرة منها أو الموفقة

وغير هذا فأنت في ميلادك الأول لا زلت تحبو !.

****

جريمة اسمها التعليم!

قالوا قديمًا: " عندما نبني مدرسة، فإننا بذلك نغلق سجنًا"، وذلك لأن المدرسة في رأيهم تنير الفكر وتغذي العقل وتقوم السلوك، وذهب بعضهم إلى قياس تحضر الدول والشعوب بعدد مدارسها وجامعاتها.

ومع إيماني الخالص بقيمة العلم وفريضة التعلم، إلا أنني أقف موقفًا معاديًا تجاه مسألة التعليم في واقعنا العربي عامة، والمصري خاصة.

أقف مستاءً تجاه منظومة تبلع أهم سنوات أبنائنا نباهة ونضجًا، تأخذ منهم إبداع الفطرة لتغرس فيهم أي شيء إلا ما يحتاجونه يقينًا في مشوار حياتهم.

ولا أظنني مبالغًا حين أقول بأن البشر يحصلون على غالب معارفهم وثقافتهم خارج جدران المؤسسة التعليمية، وأن عددًا غير هين شكلت المنظومة التعليمية لهم عائقًا، ورسخت بداخلهم ثقل المعرفة ورتابة التحصيل وكراهية المطالعة.

يحكي أحد معارفي أنه زار الولايات المتحدة الأمريكية لأول مرة في سبعينات القرن الماضي كدارس للماجيستير، وكان أن التقى بأستاذه الذي قال له في جلستهما الأولى: أعرف جيدًا الثقافة التي جئت منها، وأعي جيدًا مطالبك ورغباتك، ولذا أرى أنه من الأمانة أن أناقش معك ثلاث نقاط هامة، أما الأولى فإننا لسنا معنيين بتعليمك!، وعندما قطب الوافد الجديد حاجبه مستنكرًا ابتسم الأستاذ موضحًا: "التعليم قضيتك أنت، نحن هنا نؤهل لك البيئة المناسبة، نضع بين يديك المنهج العلمي، نجيبك عن أسئلتك، أما البحث والتعلم والتدقيق والمراجعة، فتلك مهمتك الخاصة"، هذا عن الشيء الأول، أما الثاني فإن الاختبار ستأخذه معك إلى منزلك، لا

شأن لنا بالغش والاحتيال، صدقني الغش لن يدفع ثمنه سواك، لن نخسر شيئًا إذا ما كتبت من عقلك أو من نقلك.

أما الشيء الثالث والأخير، فهو أنك ناجح بعد انتهاء سنوات دراستك، لا راسبين هاهنا!، التقدير فقط هو الذي سيتغير، أما فكرة النجاح والرسوب، فأمر لا تشغل بالك به كثيرًا!.

يقول الرجل: كان هذا الحوار عاملًا هامًا ومؤثرًا في حياتي، ففوق أنه أزاح عن كاهلي ثِقل الدرجة والدرجتين، والمذاكرة والامتحان، والحفظ والمراجعة، فإنه أيضًا فتح الباب أمامي لفهم المهمة التي أذهبتني لما وراء المحيط، مهمة أنني لست قادم لنيل شهادة أعلقها على جدار مكتبي وأتباهى بها بين الناس، وإنما مهمتي الأولى والوحيدة هي العلم أو بمعنى أدق "متعة تحصيل العلم"

ثم ختم حديثه معي قائلا: ورغم كراهيتي للكتب والمطالعة، إلا أنني، ومنذ ذلك اليوم لم أترك الكتاب أبدًا.

وبالعودة إلى مدارسنا، وبنظرة متفحصة متجردة يمكننا الاعتراف بأننا لسنا على صواب!

وكيف يمكن أن يكون ما نفعله صائبًا وسبعة عشر عامًا – على الأقل – يقضيها المرء منا في تعلم أشياء ينسى أكثرها بعد تخرجه؟

نمضي ما يقارب التسع سنوات نتعلم فيها – مثلًا اللغة الإنجليزية، ونادرًا ما يتقن أحد اللغة من خلال مسار الدراسة، بينما يكفي عام واحد من الدراسة في أي مركز متخصص لتعليم اللغة كي يقف الطالب على درجات الاحتراف نطقًا وكتابة.

ننفق أعمارنا، وجزءً غير هين من مالنا لنحشو الذهن بمعلومات عن تاريخ وجغرافيا وعلوم غير قليل منها يتسرب وينتهي دون فائدة تذكر.

ولأنني لم أستطع الحصول على أية أرقام أو إحصائيات لعدد من يعملون في غير تخصصهم الجامعي، فإنني سأترك لك مهمة إحصاء من تعرفهم ممن ضيعوا أعمارهم في دراسة لم تقدم لهم يد العون.

يمكنك أيضًا أن تترك لخيالك العنان لتتذكر هؤلاء الذين سكنت أسماؤهم في سجل المتفوقين، ثم تعيد الذهن لتقف على أحوالهم اليوم كي تدرك جيدًا أن ال– "99%" التي حصلوا عليها، لم تكن معبرًا عن حاجتهم الحقيقية، ولم تساعد أكثرهم في تلمس طريقه الصحيح.

لماذا أنشئت المدارس؟!.

هذا سؤال بديهي يجب أن نطرحه للنقاش، والحقيقة أنه ليس وليد اليوم، فهو نفسه السؤال الذي طرحه المفكر الشهير "جان جاك روسو" في القرن السابع عشر، وهو يؤكد أن التعليم الذي يقدم في المدارس النظامية يفسد الأطفال، لما

يبثه فيهم من قيم اجتماعية لا تشكل في معظمها نقاء الحياة وصفاء الطبيعة!.

وحوله أيضًا تحدث العالم الأميركي "هاورد جاردنر" في ثمانينات القرن الماضي وهو يطرح نظريته "الذكاءات المتعددة"، مهاجمًا ما يُعرف بمعامل الذكاء، ناقمًا من تعليم لا يكتشف الملكات الشخصية والمواهب الطبيعية، ولا يفتح أفقًا يستوعب اختلاف القدرات لدى الأشخاص.

إن واجب المنظومة التعليمية في الأساس هو إعداد المرء لخوض معترك الحياة، وتأهيل ذهنه بالمعارف والخبرات المبدئية كي يتكيف مع المجتمع، وتحدد له الخطوط الأولى الهامة في مشوار حياته.

واجبها – خصوصًا في المرحلة الجامعية – أن تنقل الطالب إلى مرحلة تتخطى الحفظ والتلقين، لتشمل الإسهام والإضافة إلى الموروث الفكري والعلمي والثقافي، من خلال دمج المُتعلم

في المنظومة التعليمية، وجعله جزءً من ماكينة ينبغي أن لا تهدأ أو تستكين إلا بالمزيد من التحصيل.. والعلم والفهم.

فهل هذا ما تقوم به مدارسنا وجامعاتنا ؟!

خلاصة القول يا صاحبي بأن هناك ثمة جريمة تجري ها هنا، جريمة تسرق منا أعمارنا، وتسطو على جيوبنا، وتمنعنا من حب العلم، وتبغض إلينا الكتاب.

جريمة تقوم بها دولة لا تؤمن بقيمة العلم، ومجتمع يقيمك بناء على ورقة هو يعلم أنها لا تساوي الكثير، وأهل يريدون أن يفخروا بتفوق دراسي يبرهن أنهم قد أحسنوا التربية!.

جريمة حدد أبعادها أحدهم وهو يدفع بأوراقه إلى ما يسمى بكليات القمة قائلا بسخرية مريرة " احنا بنتجوز بالشهادة.. وبنشتغل ونترقى بالحب"!.

****

الدين والثورة

بهدوء يليق بالأنبياء أطلق محمد صلى الله عليه وسلم شرارة ثورته الاجتماعية، كان واضحًا كالشمس إذ يقول في إعلانه الأول عن وجوده كمبعوث من عند الله " . يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا "

كانت خطبته الأولى صادمة، ذلك أنه أطلق في فضاء مكة قانونًا جديدًا وفكرًا مختلفًا ومنهجًا غير مألوف

أن أكرمكم وأفضلكم في ميزان الحق أتقاكم .. أكثركم قربًا من ملاصقة إنسانيته الحقيقية، وفطرته الناصعة، وأن القرابة والنسب ليس لهما في هذا المنهج موضع أو مكان.

وعليه اهتزت قريش، تحسس كل كبير من كبرائها كرسيه، وعُقد العزم على إنهاء هذه الدعوة في مهدها

بدا لهم محمد صلى الله عليه وسلم غير طبيعي، وهل يمكن أن يطلب عاقل بما يطالبهم به يتيم بني هاشم، أن يجلس بلال بجوار أبي الحكم، أو يرد سالم مولى أبي حذيفة رأي أبي سفيان، أو يشارك ياسر – فضلًا عن ابنه عمار – المشورة مع العاص بن وائل أو أبي لهب.

دعك من أن محمدًا نفسه غير جدير بما يدعيه، وكيف يمكن أن يكون هذا المُعدم الفقير، الذي طالما رعى الغنم في جنبات مكة نبيًا رسولا

وثق القرآن هذا الأمر توثيقًا دقيقًا، مؤكدًا أن دعاوى الأرستقراطية كانت أحد أهم مقومات رفض قريش لدين الله: "فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ".

نعم كان إيمان واتباع أراذل الناس – وفق توصيفهم – أحد أهم التهم التي توجه إلى محمد ودعوته، والحقيقة التي لا خلاف عليها أن جل من اتبعوا محمدًا صلى الله عليه وسلم – إلا قليل – كانوا من الضعفاء والمساكين والمنبوذين والمُحتقرين، هؤلاء هم الذين تحدى بهم النبي العالم، وأقام بهم دعائم دولته، وانتصر بهم على غرور الطبقية البغيضة

كان محمد صلى الله عليه وسلم حازمًا في هذا الأمر، حتى في المرة الوحيدة التي أعرض فيها بوجهة عن رجل أعمى بسيط ليقابل أحد كبراء قريش في أمر هو في مصلحة دعوته، وربما يكون فيها تخفيف من العذاب الواقع على أتباعه، جاءت آيات الله سريعة حازمة قاسية، جاء اللوم من الله – جل اسمه – لنبيه لينبهه إلى جوهر الفكرة وأصلها، جاء القرآن ليخبر النبي في شدة لا لين فيها أن موازين الله تختلف عن موازين بني البشر، وأن دولة الحق التي تشد دعائمها لا تعترف بأفضلية الألقاب أو الأصول، يقول سبحانه: "عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جَاءَهُ

الأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى، وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى، وَهُوَ يَخْشَى، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى، كَلا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ"

ووعى الرجل النبيل الدرس الإلهي، فجعل من أولويات رسالته هدم الطبقية البغيضة، لم يكن انفعاليًا كارهًا، ولم يتحرك من منطلق شخصي، بالعكس كان يحفظ للناس مقدارهم طالما حفظوا أقدار الناس، وينزل الكبراء منازلهم من الشرف بشرط أن يخفضوا جناح المودة والرحمة للآخرين، كانت فكرته قائمة على أن "كلكم لآدم وآدم من تراب"، وعليه مضى بلال العبد الحبشي الأسود المنبوذ وقد كلله الشرف وأحاطت به كرامة التضحية، وعزة البذل، يتحرك بلال بين جنبات المدينة المنورة والجميع يعترف له "رسميا" بالفضل والمكانة!.

يقف "سالم" مولى أبي حذيفة، الذي طالما عومل باستهزاء، وذاق مرارة الذل ليؤم كبار الناس في مسجد قباء.

كيف فعلها محمد؟؟ كيف قلب الموازين؟ كيف هدم القيم والمعتقدات والمفاهيم التي تتسلل إلينا وتتوحد مع غرورنا البشري لتصنع منا أنصافَ آلهة ؟!.

كيف رضي كبراء القوم من مكة ومن الأوس والخزرج الذين أسلموا أن يتركوا شرفهم وكبريائهم السابق ويدخلوا معادلة جديدة، تخفض وترفع وفق معايير يقررها ميزان التقوى والإيمان والبذل والتضحية والصدق ؟!

والإجابة لأن محمدًا صلى الله عليه وسلم جعلها أولوية، وبدأ بنفسه قبل أن يأمر بها غيره

كان لباسه بسيطًا، لذا عندما قرر بأن تقصر الملابس الفخمة والتي تدل على الارستقراطية والخيلاء أطاعه الناس.

كان يركب بغلته ويردف خلفه، ولذا عندما أمر الناس بأن يركب اثنان على مطية واحدة، كي لا يرى غني راكبًا وفقير مترجلًا أذعن له الناس.

كان يمشي في تواضع، حتى روي أنه وفي أهم لحظات نصره عند فتح مكة كانت لحيته تلامس رقبة دابته وقد أحنى رأسه في خشوع الشاكر الممتن لخالقه.

لقد بدأ محمد بنفسه .. رمى سرج حماره – والذي قد تبدو فيه شبه أبهة – ليقوده بلا سرج كي يكون أنموذجًا للناس ومثالا

كان يرفض أن يقوم له الناس، أو يُتخذ له في مجالسهم مكانًا مميزًا حتى أن الغريب الداخل على مجلس هو فيه لم يكن يتعرف عليه ما لم يعرفه له الآخرون.

كان يمشي بين الناس بلا حراسة، يحني رأسه مستمعًا للعجوز والأمة وصاحب الحاجة

وعندما كتب الله له النصر والفتح المبين في مكة أمر بلال بن رباح والذي كان عبدا في السابق – والعبد بالمناسبة درجة

أدنى من عامل النظافة – أن يرتقي الكعبة ويرفع الأذان ويرفع معه رأسه وكبريائه.

ذهب محمد صلى الله عليه وسلم وبقيت رسالته النبيلة، بقيت لأنها بنيت على أسس من إنكار الذات، والتواضع، والإخلاص

بقيت لتشهد على كل رئيس وزعيم وصاحب منصب يطالب الناس بأن يتواضعوا ويتقشفوا ثم نراه في موكبه وخيلائه بأنه منافق زنيم حتى وإن صلى وصام.

بقيت لتصرخ في وجه كل متكبر يتولى منصبًا يتحكم فيه في الناس، ثم يحتقر أبناء الطبقة الدنيا بأنه كذاب أشر، حتى وإن عاش عمره كله تعلو رأسه آية "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل"

بقيت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لتصفعنا كل يوم وكل ساعة بمقدار ما نرضى لأنفسنا من المذلة والمسكنة

بمقدار ما نوافق على هيمنة الكبراء على حياتنا بمقدار ما نردد في بؤس العاجزين " ربنا يولي من يصلح" ثم نسمح بمن لا يصلح بأن يكون له علينا الغلبة واليد العليا.

بقيت رسالة محمد لتخبر "أبناء الفقراء" أن بلالا وعمارًا وسالمًا وأبا ذر ينظرون إلى كفاحه في حب ومودة حقيقية وتخبر "أبناء القصور" أن كل فخر مُغتصب وكبرياء موهوم واستعلاء كاذب هو نقمة من الله سيرون مردها في الدنيا والآخرة.

****

المشكلة في "الكونسبت"!

كان سائق التاكسي الذي شاركته ساعة كاملة من حياتي نتقلب فيها سويًا بين زحام شوارع القاهرة غاضبًا!

بدا هذا في لعناته التي يوزعها بسخاء على الجميع، وتذمره المستمر من كل الناس، المترجل منهم والراكب، وشكواه التي لا تنقطع من حرارة الجو، وسوء الأخلاق، وعدم تقدير نساء هذا الزمان لكفاح أزواجهن، بين هنيهة وأخرى تنتابه حالة صمت يعلو فيها صوت أنفاسه، لا شك عندي أنه يتعارك مع نفر من الجن قبل أن يعود ثانية لينظر إلي طالبًا رأيي في الأسلوب الأمثل للتعامل مع ولده الذي لا يطيع أوامره، أو زوجته التي لا تشكر مجهوده، أو توقعي لما

سيؤول إليه حال العباد والبلاد بعد قرار الحكومة عقاب أهل الأقاليم وحرمانهم من بعض التخصصات الجامعية!

بلا مقدمات أوقف سيارته على جانب الطريق ليحضر لنا كوبين من عصير القصب، وما إن انتهينا من شرب العصير إلا وفاجأت وجوهنا المرهقة نسمة هواء منعشة، استقبلها السائق بامتنان قبل أن يقول لي :قال لنا خطيب المسجد في صلاة الجمعة ذات يوم في تفسير قوله تعالى" ثم لتسألن يومئذ عن النعيم "بأن النعيم الذي سيسألنا عنه الله هو شربة الماء الباردة، ونسمة الهواء العليلة، ونعمه البسيطة التي لا نلقي لها بالًا، مشكلتنا أننا نتعامل مع الحياة وكأنه لا شيء يرضينا فيها، نعيشها وكأننا مغلوبون على أمرنا في كل شيء!

ابتسمت موافقًا على كلماته الحكيمة التي تضاد ما كان يفعله قبل قليل، ويبدو أنه وعى ما ترمي إليه الابتسامة فاستطرد قائلًا بحرارة وكأنه يدافع عن موقفه :مشكلتنا في

هذه البلد أن كل شيء يتآمر علينا بدءً من خطيب المسجد نفسه والذي ما يفتأ يخبرنا كل أسبوع أننا لسنا على ما يرام، وأن حالنا لا يرضي الله، ومصائبنا باتت عصية على الإصلاح، مرورًا بأنظمة وحكومات تعمل عملها في تخويفنا الدائم من الغد، وتلهب ظهورنا بسياط الترهيب وصدمات القرارات التي تمضي عكس مصالحنا، وانتهاء بإعلام سيئ يقتات من تخديرنا، لقد أصبحنا شعبًا بائسًا رغم أنفه، ما نلبث أن نخرج من مصيبة إلا وندخل أخرى، بالنا أصبح مشغولا دائمًا بالبحث عن جدار آمن نحتمي به، والتجارب ما تلبث إلا وتخبرنا أن لا جدار يأوي الغلابة في هذه البلد إلا الركض المتواصل ومحاولة توفير بعض الجنيهات مخافة ما يأتي به الغد!

المشكلة أننا أصبحنا شعبا مشوها، هل تذكر الحوار الذي دار في فيلم" الكيف "بين جميل راتب والذي لعب فيه دور تاجر مخدرات، ويحيى الفخراني؟، ذلك الحوار الذي قال

فيه تاجر المخدرات" لقد غششت الشاي بنشارة الخشب المصبوغة وتقبل الناس الأمر، وعندما ندرت النشارة وغلى ثمنها توقفنا عن الغش فاتهمنا الناس حينها بأننا لا نرعى الله ولا نقدم منتجًا سليمًا، الناس هي التي تدفعنا للغش والاحتيال"، هذا المنطق المعوج هو نفسه الذي يتعامل به معنا" أصحاب البلد "يشوهون ذائقة الناس ثم يتهموننا بأننا شعب بائس لا نستحق الحياة، لقد تواطأ الجميع على تخريب" الكونسبت "فصرنا شعبًا مشوهًا نركض على غير هدى بحثًا عن شيء ضائع لا نعرف كنهه!

أشعل الرجل سيجارته الثالثة على التوالي نافثًا دخانها بعصبية وضيق صدر قبل أن يلتفت إلي مكملًا :في أوقات كثيرة يزورني خاطر، وهو أنني بهذه الحياة قد ضمنت مقعدًا في الجنة!، نعم ..حتى مع تقصيري تجاه تعاليم السماء!، يقول النبي محمد فيما معناه إن الله لن يجمع على عبده عذابين، فإما عذاب الدنيا وإما عذاب الآخرة، مصر يا

سيدي قطعة عذاب، والعيش فيها صار دربًا من دروب الجهاد بل ربما أكثر، الشهيد ينال درجته العالية بطعنة سيف أو رصاصة من عدو، ثانية أو ثانيتين وينتهي الأمر، أما نحن فننال من الطعنات في كل يوم وساعة ما جعل نفوسنا وقلوبنا مهترئة تمامًا، انظر للناس والبؤس البادي على وجوههم وستعرف مقصدي جيدًا، إنهم يُعذبون رغم انفلات ضحكاتهم على المقاهي ليلًا، شهداء حتى وإن بدا منهم ما ينبئ عن سوء السلوك وخبث الطوية!

قطع حبل الحوار وصولي إلى بغيتي، هبطت من السيارة وأنا أنظر لها مبتعدة ويد السائق تشيح لأحدهم في حنق وغضب، حيرتي تجاه هذا الشعب تزاد يومًا بعد يوم، قوم يعرفون الحقيقة لكنهم لا ينطقون بها، يدركون الصواب بيد أنهم لا يجدون السير إليه، يغضبون في غير مواطن الغضب، يرضون حين ينبغي التمرد، يصمتون عندما يكون الصراخ مطلوبًا!

سهل على رجل كهذا أن يحلل أزمته ما دام التحليل سيريح كاهله المتعب، ويشير إلى مواطن الداء ما دام لن ينتبه لإشارته أحد، لكنه في الأخير سيجتهد في حشر جسده بصعوبة في صفوف القطيع المتحرك، ذلك القطيع الذي يعرف جيدًا كل فرد فيه أنه مظلوم ومكلوم وبائس، لكنه بدلًا من الخروج عن النص، يلقي بغضبه على شركائه في البؤس، ويحقق ما طلبه منه ظالموه، مستمتعًا بشعور الضحية، متعلقًا بأمل ما ربما يعيد إليه راحة لا يعرف عنها شيئًا.

ابتسمت حينما تذكرت قوله بأن مشكلتنا صارت في "الكونسبت"، في قناعتنا وطريقة تفكيرنا ومعاييرنا التي طالها الخلل والعوار، شعرت أنه قد وضع يده على أول نقاط الحل، ومبتدأ التغيير، لا حل يرتجى إلا بإصلاح تفكير الناس، بتعديل ذائقتهم ليشعروا بالامتعاض تجاه ما هم فيه،

لا حل يجدي إلا إذا صار الظُلم مُنكرًا في النفوس، والذل دونه الموت.

لا طريق إلا إذا شعر الناس بأن العدل والحرية حق مشروع كالتنفس، وليس هبة أو عطية من" أصحاب البلد " كما يسميهم صاحبنا.لا حل حقًا إلا بتغيير" الكونسبت"، وتلك لو ندري مهمة الرسل والأنبياء والمصلحين في كل زمان ومكان.

****

والتهمة.. مطلقة!

تعودت على سماع الشكاوى والمشكلات، عقد ونصف من الكتابة في العلوم الإنسانية والاجتماعية جعلني – رغم أنفي – وجهة مناسبة للبعض، بعضهم ينعتني بلقب "دكتور"، والآخر يراني" مستشارًا"، وغير قليل يضعونني في مكانة أعلى من هذا وذاك.!هكذا نحن، ما إن نثق بأحدهم حتى نُحسن الظن فيه، ونضعه في مرتبة لا تبعد كثيرا عن مراتب الصالحين أو المصلحين، آفة مجتمع يحب بتطرف، ويبغض بتطرف، ويعادي ويناصر دون أي أسباب منطقية عاقلة، يكفي أنك قد رقت له كي يفتح بوابة قلبه على مصراعيها، ويدعك تُقلب في فصول حياته السابقة.مع

الوقت بت مؤمنًا أن جزءً كبيرًا من حاجة الناس ليست في طلبهم للنصيحة والرأي السديد، إنهم يبحثون عمن يستمع إليهم دون مقاطعة، ويهز رأسه في تفهم، ويربت علي قلوبهم بعطف وحنان.

وعليه لم أستطع أن أرفض مقابلتها، جلست قبالتي وثمة حزن قاتم يلفها، أطالت النظر إلى أسفل وكأنها تبحث عن معنى ضائع، خرجت كلماتها بطيئة خافتة، أغلقت النافذة المفتوحة على مصراعيها فوق رأسي علّي أتبين أحرفها، خشيت أن أطلب منها رفع صوتها خشية تحطم آخر قلاع مقاومتها، هذه امرأة بائسة مجروحة، لا تحتاج لشبهة وجع، حتى وإن كان طلبًا بسيطًا كرفع الصوت .!قالت :بدأت أزمتي منذ أنهيت دراستي الجامعية، ودخولي مرحلة انتظار "ابن الحلال"، ومع ظهور أول خاطب بدأت معالم مشكلتي في الظهور، ذلك أنني ورغم سنوات عمري العشرين، لا أعرف ماذا أريد، ولا كيف أختار.!

لا عجب، معظمنا كما تعلم لم يتربَّ على ثقافة الاختيار وتحمل مسئولية قرارته، لذا تبدو كل الخيارات أمامنا متشابهة، حاولت أن أقرأ وأبحث عن آليات وأبجديات تساعدني على اتخاذ هذه الخطوة، لكن كل هذا لم يجبر كسر الاضطراب الذي أصابني، ومع ظهور الخاطب الثالث، ومع رفضي وترددي القائم على شعوري بأن هذا الشخص ليس هو المرجو، بدأ أهل بيتي في التذمر، أبي وأمي يتهمانني بازدراء النعمة وكفرها!، أمي تهدد بأنها لن تسعى في هذا الأمر، وعلي أن أتحمل نتيجة" دلعي "المستمر، أسوء ما يمارسه الأقربون علينا هو ذلك" الابتزاز العاطفي"، إنهم يدفعونني دفعًا لقبول الشخص الذي يرون بأنه الأقدر على قيادة حياتي وإسعادي، حجتهم الدائمة أنهم لا يبغون سوى مصلحتي، وأن أعيش هانئة في كنف رجل" لا يمكن رفضه"، و"تتمناه ألف واحدة.!"

كانت نواياهم حسنة طيبة، لكن لم يخبرهم أحد للأسف أن طريق الجحيم في كثير من الأحيان يكون مفروشًا بمثل هذه النوايا الطيب.!وعليه تزوجت!، ظننت أني بهذا ألقي بمسؤولية الزواج عليهم، ولم لا؟ أليسوا جزءً أصيلا من القرار؟!، لكن الأمور لم تجرِ بهذا الشكل، قدرتي على استيعاب أزمات الزواج لم تتحمل أكثر من عامين.!

نعم، عامين وجئت أطرق باب بيتهم، أحمل حقيبة ملابسي وهمومي ووجعي وحطام شبابي، وجنينًا بين أحشائي

عامين فقط، لكن شجونه كانت أكبر مني، لن أخدع نفسي أو أخدعك، كان انفصالنا – غير المتحضر بالمناسبة –كارثيًا، أهان كل منا صاحبه، صغر سني وعدم درايتي بما أنا مقدمة عليه، ومزاجه المراهق وعدم قدرته على إدارة حياتنا ومشاكلنا، وخيبة أملي من وجودي مع الشخص غير المناسب كانت أسبابًا معتبرة لهذا الانفصال، لكن لا يمكنني أبدًا أن أغفر ما فعله أبواي معي، وحدي تحملت المشقة

والألم، ووحدي لا زلت أتحمل .عاد أهلي مضاف عليهم المجتمع، وزوجي السابق لذبحي من جديد .!لقد حصلت على لقب" مُطلقة"، ذلك اللقب الذي يرى الجميع بأنه جالب للعار والخزي، يراني الجميع مسؤولة وحدي عن هذا الفشل، وكان علي أن أتحمل كل شيء، وأي شيء، إلا أن أنهي حياتي بهذا الشكل.

حتى وإن كان الزوج فاسدًا أو بائسًا أو سيئًا، لا يهم، القاعدة تقول " لو أرادت العيش لعاشت"، ولماذا لا يلام هو بنفس القدر؟!، المجتمع يتقبل أن يسمي تجربة المطلق "تجربة غير موفقة"، وعليه يمكنه إعادة الكرة، وبدء حياته من جديد، لكن بالنسبة للمطلقة فإنها مصيبة وكارثة ودليل على رعونة وطيش وربما شيء ما يعلمه رب الغيوب!.

وهكذا تمر الليالي علي، أبيت وحسرة كوني امرأة تتملكني!، أنا المتهمة دائمًا وأبدًا .جئت إليك يا سيدي لا بحثًا عن حل بل طلبًا لإجابة!..

إجابة لسؤال لا يؤرقني وحدي، بل يزور خاطر ملايين النساء في وطننا هذا يزورهم كل يوم وساعة بالمناسبة ..قبل ست سنوات قالت الإحصائيات أن عدد المطلقات في مصر يقارب الخمسة ملايين مُطلقة، ثم توقفت الدولة عن إمدادنا بالمزيد من الأرقام، يمكنك أن تضاعف العدد مُطمئنا لا شيء كالوجع والحسرة يتضاعفان في هذا البلد البائس .!على كل.. هناك ملايين القلوب الموجوعة في بلدك هذه..

كلهن بلا استثناء مُتهمات.. كلهن لا يستطعن بدء حياة من جديد كلهن كافرات بالنعمة كلهن واقعات تحت رحمة المجتمع والظروف والناس فلا دولة تحيطهن برعاية، ولا مجتمع يتقبلهن كأشخاص لهن حياتهن الخاصة وتجاربهن الشخصية، وحتى أقرب الناس يرون بأنهن عبء ومصيبة

والسؤال :من أين لهذا المجتمع بكل هذه القسوة ؟ عندما شرع الله الطلاق جعله حلًا أخيرًا لحياة لا يرتجى منها استقامة، وقد يكون هو الحل الأفضل في كثير من الحالات، كان الله رحيما بالمرأة، فجعل الفراق بالمعروف والإحسان إليها أمرًا واجبًا على الرجل" يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ" ، " فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

هذا مجتمع يا سيدي يمضي عكس هدى الله وتعاليمه، يذبح بسكين بارد أبناءه وبناته ولا يجد غضاضة بعدها في أن يتوضأ ويقيم الصلاة ويدعو الله بأن ويولي عليه من يُصلح له أمر دنياه لأن أمر دينه على ما يرام

توقفت زائرتي عن الكلام، ثمة غصة أوقفتها عن الاستطراد، لعلها شعرت أن الشكوى لغير خالقها مذلة، أو ربما رأت أن مهمتها قد انتهت البوح في بعض الأحيان يمنعنا من الانفجار، لكنه لا يصلح علاجًا لأزماتنا

ودعتها صامتًا، وودعت معها جزءً من الأمل في صلاح هذا المجتمع، لولا يقيني بنهاية اتصال السماء بالأرض، لقلت إن هذا وقت مناسب جدًا لظهور نبي جديد!..

نبي ينقذنا من عبث التخبط والتيه ويذكرنا أن ما نحن فيه ونقوم به ونفعله لا يرضي الله.

****

طريق الحرام!

بتوتر ملحوظ وعين زائغة وشقاء منحوت على وجهه النحيف، جلس قبالتي!.

ساكنٌ كجبل منسي، لا تحتاج لعين خبيرة كي ترى البركان المشتعل بداخله، جاء بحثًا عن أمل يعلم في قرارته أن لا سبيل إليه إلا بمعجزة.

حاولت أن أقرضه ابتسامة مشجعة، علها تقطع حبل صمته الشائك، لكنه أبى إلا أن يقول كل شيء جملة واحدة!.

بلا تمهيد اندفع قائلًا: خمس سنوات مرت منذ خطبتي لفتاة رأيت أنها قادرة على حمل تكاليف الأيام معي، خمس سنوات

وأنا أبحث عن زاوية في هذا البلد كي يأوي زوجين لم يطمحا في أكثر من إقامة بيت، وتكوين أسرة

خمس سنوات تغير فيها أربعة رؤساء وست وزارات، مات فيها من مات، وولد فيها من ولد، وأنا أضرب بمعول جهدي هنا وهناك كي أريح جسدي المنهك، وقلبي المكدود، وروحي المتعبة!.

خمس سنوات وأنا بين مطرقة أهل فتاتي وسندان الظروف.

خمس سنوات وأنا أحاول فهم ما يمثله الذهب من قيمة في هذا المشوار، وما يمكن أن يفيدني إياه ذلك الكائن المدعو بالنيش، وجدوى أن ألقي بغير قليل من عرق جبيني في ذلك العبث المسمى بالفرح!.

خمس سنوات وأنا أكدح في بلد تخاصم الكادحين، أحاول أن أصمد في معركة لا بشائر فيها!.

هذه الملامح الأربعينية كاذبة، عشر سنوات كاملة أضافتها الهموم على وجهي، لا ذنب لي في كل هذا، لا أظنني مدانًا حين أتيت إلى دنياكم دون نسب أو حسب، تلك أمور لا يخترها الواحد منا كما تعلم.

عندما قررت أن أكمل نصف ديني – كما يقولون – لم أكن أدرك أن واقعنا بمثل هذا السخف، ظننت أن شعبًا يتفاخر بأنه "متدين بطبعه" سيفهم جيدًا حديث نبيه أن "أكثرهن بركة أقلهن مهرا"، وأن على الخاطب إن يلتمس ولو "خاتمًا من حديد" إذا كان شريفًا مكافحًا في مبتدأ مشواره.

لكن الأمر كان غير ذلك، النبي الذي يتفاخرون بالصلاة والسلام عليه في خشوع كاذب لم يستحضروا تعاليمه ولو مرة واحدة حينما جمعنا مجلس الاتفاق، استبدلوا حديثه بحديث آخر، حديث فج وقح مفاده أن ابنتهم لا يمكن أن تتزوج بأقل مما تزوجت به ابنة خالتها التي خُطبت قبل أيام لشاب يعمل في الخليج!.

المقارنة هي التي تحكم الأمور هنا، قائمة مطالبهم كان محركها الأول كلام الناس، ونظرة المجتمع، وحديث بارد مكرر عن مستقبل ابنتهم، وتأمين حياتها، واستقرارها!.

المدهش أن حديثهم كان محل إجماع، تجهز والدي للدخول في مرحلة التفاوض و"الفصال"، محاولة شبه فاشلة لتقليل خسائري، واقتناص شيء من غنيمة الناس!.

نعم الناس ..!

الناس كانوا هم الطرف الآخر، الناس الذين سيسخرون ويتلاسنون، ويتحدثون عن الأهل الذين ألقوا بابنتهم لرجل لا يستطيع توفير نيش يتسع لأطقم الصيني وأكواب الشربات!

الناس الذين سيرموننا بالبخل والفقر وقلة الذوق لأن ليلة عرسهم – ولا أقول عرسي – لن تكون في قاعة شهرزاد أو ليلة العمر أو شيء من هذا القبيل!.

الناس الذين يجب نيل رضاهم بإحضار أربع غرف وصالون مذهب، وطاولة طعام تتسع لثمانية أشخاص!.

الناس الذين سيأكلون وجوهنا إن كان بيتنا صغيرًا بسيطًا، يحتوي فقط على ما نحتاج إليه.

وهذا ما حدث يا سيدي، خرجت يومها محملًا بعبء توفير ما لا أقدر عليه، خرجت مهزومًا تشيعني زغاريد الأهل، وكلمات تحمل زهدًا زائفًا من أب يدعي بأن الماديات لا تعنيه لأنه "بيشتري راجل"!.

ما الذي حدث بعدها ..!؟

لا شيء المزيد من التعب والكد وتحمل سخافات البشر وتسلط أصحاب العمل، وحِمل عبء التبرير المستمر لأهل فتاتي عن بطء تلبية مطالبهم، والبرود أمام تلميحاتهم بإنهاء الأمر.

صرت مؤمنا أننا نحيا في بيئة مصطنعة، الناس من حولنا يبذلون جهدًا مضنيًا لإخفاء ما بداخلهم من اضطراب ومرض، من مفارقات الأيام المُضحكة – وشر البلية ما يضحك – أنه حينما هم والد خطيبتي بتزويج ولده الأوسط كنت حاضرًا جزءً من جِلسة الاتفاق، شاهدت الرجل وقد تحول من الهجوم إلى الدفاع، تحدث بلسان لا يختلف عن لسان أبي وقت جلوسنا بين يديه، تحدث عن ولده الذي يبدأ المشوار، وعن المال الذي لا يوفر السعادة، وعن الدين والأخلاق الذين يجب أن يحركا دفة الحوار لا شيء آخر

كدت في لحظة أنفجر ضاحكًا، كتمت مشاعري وشغلت نفسي بتخيل كل واحد من المتفاوضين وقد عاد إلى بيته ليتذاكر مع زوجته تفاصيل الاتفاق، عن عبارات الرضا والاستحسان التي سيسمعها حينما يذكر بندًا من بنود الاتفاق التي فاز بها، ولحظات التوتر التي ستتبع ما غفل الذهن عن استحضاره من شروط كان يجب أن يتضمنها المجلس.

سأصدقك القول، في مرات غير قليلة أهم بارتداء لباس اللامبالاة والبحث عن طريق آخر، ما دام الحلال بهذه الصعوبة، فما المانع إذن من طرق بوابة الحرام؟

كدت أفعلها لا طلبًا لمتعة مختلسة، وإنما بحثًا عن هدنة لجسدي ومشاعري وروحي، ستقول لي إن هذا لن يرضي الله وهل يرضيه إذن كل ما سبق؟!

أطمئنك، لا زال عندي بقية من تربية وإيمان يمنعاني من ارتياد هذا الطريق.

توقف صاحبنا عن الحديث وقد ارتسمت على وجهة ابتسامة لم أهتد لمعناها، يبدو أن مهمتي قد انتهت، الاستماع إذن هو ما كان يبحث عنه.

ارتشف قهوته على مرة واحدة قبل أن ينهض مادًا يده إلى مصافحًا، جعبتي من كلمات التفاؤل والإيجابية وغيرها مما يقوله أهل التنمية البشرية لا أجدها صالحة في هذه الحالة

هذا شاب يتحدث بلسان جيل بأكمله، إنه يحتاج لأكثر من كلمات المواساة والدعم

يحتاج إلى مجتمع عاقل ووطن حقيقي وأمل قريب..

وتلك لو تدري عملة نادرة.

****

هل الزواج مقبرة الحب؟!

تخبرنا الإحصائيات أن نعم..!

ففي البيان الأخير الذي صدر عن الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء، أكد بأن عدد حالات الطلاق بمصر عام 2013 وصل إلى ما يقارب 163 ألف حالة طلاق سنويًا، بحسبة بسيطة يمكننا القول بأن لدينا تقريبًا حالة طلاق كل خمس دقائق، أكثر من ربعهم – وفق البيان – يحدث قبل مرور عامين من الزواج.

والأشد أسفًا أننا لا نستطيع أن نضرب صفحًا عن عدد حالات الطلاق العاطفي، أو لنقل تلك البيوت التي تستمر كزيجات ناجحة في عين الناس، لكنها من الداخل مهلهلة،

تتماسك فقط من أجل الصورة الاجتماعية، أو خوفًا من تشتت الأبناء وضياع مستقبلهم، أو حتى لسوء الوضع الاجتماعي، الذي يرغم الزوجين أو أحدهما على قبول الحياة رغم مرارتها وبؤسها لعدم وجود سبيل آخر!.

ويكون السؤال الحائر..

كيف لعلاقة وصفها ربنا جل اسمه بأنها (مودة، رحمة، سكن) أن تصبح بهذه القسوة، وأن يترتب عليها كل هذا الوجع المؤلم.

ما الخلل الذي يحدث في بيوتنا فيجعلها مرادفًا للجحيم بدلًا من أن تكون محضنًا للود والرحمة والبهجة؟!.

والحقيقة أن هذا السؤال الحائر هو نفسه أول أسباب المشكلة، ذلك أن المجتمع الذي نحيا فيه لا يتعامل مع تلك الكارثة بأهمية كبيرة، يراها مشكلة فرد لا مشكلة مجتمع، ولن تستطيع مهما بحثت أن تحصل على دراسات موثقة تناقش

المشكلة والحل، ولو من باب التنظير فضلًا عن طرح خطط عمل، وبرامج عملية.

وهنا يمكننا أن نستحضر التجربة الماليزية، وكيف انتبه العبقري مهاتير محمد إلى خطورة ارتفاع نسب الطلاق في المجتمع الماليزي، ورأى حينها أن حالات الطلاق الكثيرة ستوثر بقوة في خطط النهضة التي رسمها من أجل الارتقاء بالبلد الناشئ، وجهة نظره حينها أن الشخص الذي يترنح في حياته الخاصة، ويحمل في روحه وجع الشقاق والانفصال والتشتت النفسي والذهني والعاطفي، سيحتاج إلى أن يريح رأسه على كتف المجتمع ليشكو ويلوم، بدلًا من أن يكون هو نفسه شخصًا منتجًا فعالًا، وكان قراره الفريد حينها بأن جعل إلزامًا على كل فتى وفتاة أن يجتازا ما أسماه "رخصة قيادة الحياة الزوجية" والتي تتكون من دورات وورش عمل في العلاقات الزوجية، يتعرف كل طرف منهما من خلالها على طبيعة الزواج،

وأسس الاختيار السليم، والحقوق والواجبات، وغيره من الأبعاد النفسية والاجتماعية والدينية للزواج.

حققت تجربة مهاتير محمد نجاحًا غير مسبوق، حيث هبطت نسب الطلاق في ماليزيا من 32% إلى 7% ، وكما نرى فإنها نسبة نجاح مذهلة، وخطوة جوهرية كان لها بالغ الأثر في رقي الدولة الآسيوية.

وهذا ما نحتاجه نحن أيضًا.

نعم بحاجة إلى مثل هذا الوعي والإدراك، بحاجة إلى أن نعي ونفهم أن الأسرة هي المكون الأساسي للمجتمعات، وأن المجتمع الذي يسمح للشاب فيه أن يقود حياة زوجية لمجرد أنه يمتلك "وظيفة وشقة وسفرة ونيش!"، دون أن يكون لديه أدنى فهم لقدسية الحياة الزوجية، وأن يلقي في المقابل بالفتاة لتتحمل مسئولية حياة كاملة هربًا من وساوس العنوسة، ولأن سنها قد وصل إلى سن الزواج، لهو جريمة وكارثة يمارسها المجتمع ضد أبنائه.

دعك من الخطأ الكبير الذي يرتكبه البعض حينما يقارن بين جيل الآباء وجيل الأبناء مؤكدين أن المشكلة في جيل الشباب الذي صار متمردًا على القواعد والقيم التي كانت تحكم الأسرة سابقًا، وموقع الخطأ هنا هو الإهمال الكبير للمتغيرات التي حدثت، والضغوط الاجتماعية والمادية التي صار يعانيها أبناء هذا الزمان، والتي تدفع بالشاب منهم إلى دخول حياته الزوجية محملًا بضغوط مادية وربما ديون وأقساط يحتاج إلى سدادها وهو ما ينعكس على نفسيته وتعامله اليومي.

أضف فوق هذا أن أبناءنا اليوم صار لديهم وعي أكبر باحتياجاتهم النفسية والعاطفية، لم تعد المرأة ترضى بنصف ابتسامة أو نصف اهتمام أو نصف تواصل.

صارت الفتاة تبحث عن زوج يفهم طموحاتها، ويحترم ذاتها، ويقدر احتياجاتها، كما صار الشاب بحاجة إلى فتاة تدعم كفاحه في الحياة، وتتفاعل مع همومه وتعينه على نوائب الأيام.

وهذا لن يحدث إلا بفهم كل من الرجل والمرأة لطبيعته ابتداء، ثم فهمه وتفاعله الإيجابي مع طبيعة الطرف الآخر.

لن يحدث إلا إذا أدركنا قدسية وأهمية ما نحن مقدمون عليه، وعرفنا جيدًا كيف نتلقى الحب ونُظهره، وكيف أن كل طرف في العلاقة لديه احتياجات نفسية وعاطفية وجسدية تحتاج لأن تُروى وتُحترم.

نحتاج إلى أن نتعلم كيف ندير الحوار الأسري، وكيف نتعامل بوعي مع المشكلات التي ستحدث في نطاق البيت.

إننا بحاجة إلى وعي مجتمعي لخطورة المشكلة، والتكاتف من أجل البحث عن حل صحيح ومنهجي وناضج.

وغير ذلك فسنظل في السقوط، وسترتفع الأرقام والإحصائيات معبرة عن مأساوية واقعنا الأسري، وسيهرب الشاب والفتاة من رباط زوجي يسلمه في الأخير إلى المشاكل والنكد!.

سيدير ظهره لزواج كل ما وصله عنه أنه قبر مستعد دائمًا لالتهام الحب!.

أعاد صاحبي ظهره إلى الخلف وهو ينظر إلى قائلًا بلهجة تشوبها مرارة ساخرة: صدقني، مهما حاولت أن تقنعني بفكرة الحب والرومانسية في حياتنا الزوجية فإن الواقع سيقف حجر عثرة بيننا.

الواقع الذي تدلل أحداثه، وإحصائياته، وحكاياته على عكس ما تقول وتكتب، الواقع الذي يدفع المرأة إلى أن تتحول من زوجة إلى أم بعد مرور عام أو أكثر، وتدفع الرجل منا إلى خفض سقف توقعاته إلى ما دون النصف، راضيًا أن يلعب دور "الثور في الساقية"، يركض كل يوم محاولًا لملمة ما تبقى من طموحاته، ليعود آخر اليوم غير قادر على أداء أي أعباء إضافية!

ثم صمت هنيهة ليبتلع ريقة قبل أن يقول في نفاذ صبر: لا يوجد شيء يسمى الحب بعد الزواج، إنها العِشرة والأيام

والمهام والتحديات المشتركة التي تجمع بيننا، وغير هذا هراء وكلام تبيعونه للناس ..!.

حسنًا، يبدو أننا سنبذل جهدًا كبيرًا كي نزيح ما ترسخ في أذهاننا، وزرعته فينا الدراما، سنبذل جهدًا كبيرًا كي نُفرق جيدًا بين الحب الحقيقي والحب المزيف، بين الحب القائم على أساس من الوعي والمعرفة والنضج، وبين الحب القائم على مشاعر وأحاسيس غير ناضجة وغير حقيقية.

بين الحب الذي يقوم على موقف الزوجين الناضج من الزواج، وبين الحب الذي يقوم على جسر من المشاعر المراهقة والذي ما يلبث ويهوي عند أول اختبار حقيقي من اختبارات الحياة.

قلنا سابقًا إن هناك ثمة فرق حقيقي بين "نشوة الوقوع في الحب" وبين "الحب"، بين تلك المشاعر التي تنتابنا في بداية العلاقة وخلال الأشهر الأولى للزواج وبين الوعد الذي نمضي به في حياتنا الزوجية ويساعدنا على تحمل الحياة وأزماتها.

وأخبرتك حينها عن خطورة أن نتزوج وفي أذهاننا أن الحب يعني تلك الرعشة الخاطفة، والارتباك اللذيذ، واحمرار الوجه، واختلاج القلب، والأحلام التي لا تعترف بسقف يحدها.

إن مرحلة النشوة تلك التي يغلب فيها التفاؤل والرضا الكامل عن العلاقة، لا تعدو أكثر من حالة، نتخطاها لنبدأ حياة زوجية، يجب أن نكون منتبهين جيدًا أنها تحتوي على معادلة في غاية الأهمية والخطورة، تلك المعادلة التي تقول بأن الحب بعد الزواج يكون موجودًا إذا ما فهمنا أن هناك ثمة فرقًا هائلاً بين "الحب كقيمة" و"الحب كشعور"!.

ودعني أوضح لك ما أقصده

معظمنا يدخل بوابة الحياة الزوجية متكئًا على رصيد من المشاعر الموجودة بقلبه، نظن بأن تلك المشاعر كافية كي تأتي بالسلوك الحسن، قادرة على أن تقيم بيتًا هادئًا طيبًا تظلل سماؤه سحب المودة، والحقيقة أن العكس هنا هو الصحيح!.

نعم في الغالب المعادلة الصحيحة تقول بأن السلوك الحسن هو الذي يأتي بالمشاعر الطيبة، العطاء هو الذي يبعث على التواصل الجيد، غض الطرف وإقالة العثرة والتغاضي عن بعض ما نكره هو الذي يمهد لنا الطريق كي يكون تواصلنا أكثر روعة ورقيا.

بمعنى أننا بحاجة كي نعي بأن المشاعر التي نملكها كرصيد في مبتدأ زواجنا يجب أن يتم استثمارها وزيادتها بالسلوك الطيب، والكلام الحسن الجميل، بدلًا من أن نسحب منها بشكل مستمر، ظانين بأنها لن تنضب أبدًا.

من هنا أؤكد على أن الحب في حياتنا الزوجية نوعان، نوع يسمى "الحب كقيمة"، وهو الحب القائم على وعي بأهمية التضحية، وواجب العطاء، والانتباه الكامل لسلوكنا وما نقوم به، الحب كقيمة هو حالة عقلية واعية، تدعونا للانتباه التام إلى أن رصيد الحب في القلب يزيد وينقص، يزيد بالسلوك

الحسن الجميل، وينقص بردود الأفعال غير المنضبطة، والمشاعر المراهقة، وعدم فهم احتياجات الطرف الآخر.

الحب كقيمة يعني وعينا التام والكامل بأن أسوأ ما يمكن أن يقوم به المحب أن يسحب من رصيده لدى الطرف الآخر، حتى يصبح سحبه "على المكشوف"، ويستمر في سلوكه هذا إلى أن يصدمه صراخ الطرف الآخر بأنه لم يعد لديه ما يقدمه لإنقاذ حياتهما الزوجية، لقد أتى طرف على الرصيد بكامله فلم يترك فيه شيئًا يمكن أن يشفع له.

"الحب كقيمة" هو الرصيد يا صاحبي الذي نعمل على زيادته كل يوم من خلال تلك الممارسات الطيبة الحسنة الجميلة، أما الحب كشعور فهو الناتج الذي نلقاه من جراء اهتمامنا السابق.

حب الشعور هو لهفة القلب الحقيقية، هو المشاعر الصادقة، هو المودة والامتنان العميقان، هو التعبير القلبي عن السعادة والبهجة لوجود كل منا في حياة الآخر

بتعبير آخر يمكننا القول بأن الحب كقيمة يشبه "الشجرة"، بينما الحب كشعور هو "الثمرة"!.

وكلما اجتهد المرء منا في رعاية شجرة الحب، والاهتمام بها، وتعهدها دائمًا، كلما كانت الثمرة أكثر حلاوة، ونضجا، تسر بمرآها ناظري المحب الصادق.

يا صاحبي علينا أن نحافظ على الحب نبتًا وبرعمًا حتى يصبح من القوة بمكان، فلا تهزه ريح أزمة أو مشكلة، ولا ينبغي لنا قبل ذلك أن نطالب بالاستمتاع بشيء لم نرعه أو نتعب من أجله *مكتبة الرمحي أحمد*

حتى وإن وقعت في الفخ وتركت عناكب الروتين والجمود تنسج خيوطها على حياتك الزوجية فإنني أؤكد لك بأنه لا زال هناك فرصة متجددة لخلق الحب

نعم، فالحب بالتحبب يا صديقي بأن نتمثل الصفات التي تدل على الحب، بأن نقول الكلمات التي تؤكد الحب،

بأن ننتهج السلوك الذي يدعم من مفهوم الحب، بأن نصغي لصوت قلوبنا قليلًا، فنرفع من شأن القيمة كي نهنأ بالثمرة

وحينها – حينها فقط – يمكننا رؤية الحب واقعًا في حياتنا، وسندرك كذلك بأن الزواج ليس مقبرة الحب كما يشاع، وإنما هو محضنه وكنفه وجوهر وجوده

****

نعم .. يعيش الحب مع المشكلات!

استدار صاحبي إلي وهو يرشف رشفته الأخيرة من فنجان القهوة خاصته قائلًا: لا يمكن أبدًا إنكار ما للمشكلات الزوجية من دور في النكد الذي نعيشه ونحياه، تلك المشكلات التي لم تصلح معها توجيهاتك ونصائحك، المشكلات الكبيرة المتعلقة بالضغوط التي نحياها، والروتين الذي يزحف على حياتنا، والاختلاف المنطقي بين طبائع وأمزجة كل من الزوجين، كذلك المشكلات الصغيرة المتعلقة بالضغوط اليومية، وإدارة ميزانية البيت وتربية الأبناء، وما تلقي به رياح الحياة على نفوسنا وبيوتنا من أزمات عابرة ومستمرة!.

ثم أخذ نفسًا عميقًا وهو يميل إلي بجسده قائلًا بنفاذ صبر: نصائحك يا صديق، لا تعدو أكثر من تنظير لا يُقدم ولا يؤخر، تمامًا كمن يلقي محاضرة على غريق يؤكد له من خلالها على أهمية تعلم السباحة، لا طوق نجاة لديك صدقني، ولا داعي لإقناعي بالعكس!.

لدى البعض – وهم كثر في عالمنا العربي – تصور أن البيوت السعيدة هي تلك التي تمر بأقل قدر من المشكلات، أو هي على جانب آخر تلك البيوت التي لا تُخرج مشاكلها أمام الناس، ويجتهد أصحابها في رسم ابتسامة عريضة على شفاههم مع حرص كل طرف على تمثيل دور الشريك المتحضر في حضرة الغرباء!.

البعض يتعامل من منطلق أن الزواج شر لا بد منه، وأن مسألة الاستمتاع بالحياة الزوجية، والتجديد فيها، والعمل على جعل شعلة الشغف مشتعلة على الدوام أمر خيالي لا خير في

طلبه، وكيف يستقيم هذا الشغف والضغوط حاضرة على الدوام، والمشاكل لا تلبث إلا وتطل برأسها بين وقت وآخر.

والحقيقة أن كل هؤلاء يحاولون مداراة فشلهم وإحباطهم من خلال المصادرة على المطلوب، تأكيدهم أن حالة النكد التي يعيشونها هي الدليل على أن الزواج جالب للنكد، غافلين أن مناهج الدين – وهي المُنظم الأول والأكثر اعتبارية للعلاقة بين الزوجين – قد أكدت على كونها مودة، وسكنًا وميثاقًا ورحمة.

يتهموننا بالمثالية حينما نتحدث عن الحب، بينما الحقيقة أن مثاليتهم وعدم واقعيتهم في مبتدأ حياتهم الزوجية هي التي أودت بهم إلى هذا الطريق الموحش، وجعلت صدمتهم في مشروع الزواج مزلزلة.

ودعونا نعيد صياغة سؤال صاحبنا الذي بدأ الحوار، لكن بشكل أكثر مباشرة ووضوحًا:

هل يمكن أن يحيا الحب مع المشكلات الزوجية ..؟!.

بل دعونا نغص أكثر إلى الأعماق ونسأل:

هل يمكن أن تكون حياتنا الزوجية مُبهجة، باعثة على الراحة والهدوء، مع وجود مشكلات كبيرة كانت أو صغيرة، دائمة كانت أم عابرة؟

وأجيب بنعم ولا ريب!.

ولنوضح الأمر عبر استعراض ثلاثة محاور أرى بأهميتها:

المحور الأول أن اختلاف وجهات النظر، والآراء، ورؤية الأمور بشكل مخالف، ومن ثم الاصطدام بين الزوجين أمر طبيعي، فالزوج الذى عاش سنوات عمره التي ربما تخطت العقدين ونيف في بيئة مغايرة عن بيئة زوجته، وبين أبوين أورثاه صفات جينية، وقيم تربوية، وحددا طبيعة مواقفه تجاه أمور الحياة، يقينا سيكون شخصًا له مواقف وآراء وأفكار تختلف

عن شريكه الذي عاش وتربى في غير البيئة وكانت له مشاربه الخاصة التي حددت شخصيته.

هذا الاختلاف الذي يقينًا حادث بين أي شخصين جمعت بينهما رابطة ما، والذي يمكن التعامل معه بتحضر وتفهم، أو عصبية وتصادم.

الله سبحانه وتعالى حدثنا عن سُنة التدافع الماضية بين البشر، ذلك التدافع الإيجابي الباعث على إعمار الحياة والحفاظ عليها من التدهور والخراب، ليس فقط بين المجتمعات والأمم المختلفة، وإنما كذلك بين العقول المتباينة، شريطة أن يتم احترام هذا الاختلاف، وإدارته بشكل واع ومنضبط.

المحور الأول هنا يخبرنا بأن المنطق والعقل يؤكد أن هناك ثمة اختلافًا وتصادمًا آتيين، مهما بدا لنا في نشوة الحب الأولى أنه لن يحدث، وأن المشكلة ليست في وجود مشكلة وإنما في تعاملنا معه!.

المحور الثاني: أن المشاكل نوعان، نوع مرتبط بطباعنا الشخصية التي تكونت معنا خلال السنوات الماضية، وصارت جزء لا يتجزأ من طبيعتنا يصعب – بل قد يستحيل لدى البعض – تغييرها، كالعصبية مثلًا، أو الغيرة أو عدم الميل للاجتماعيات أو قلة الكلام

ونوع ثانٍ، وهو المشكلات التي تُحدثها مواقف الحياة العابرة، كالغضب من موقف بعينه أو التذمر من ردة فعل شريك حياتي، أو ضيق الصدر بسبب أزمة عابرة.

الفكرة هنا أننا بحاجة إلى إدراك أن المشكلات المتعلقة بالطباع الشخصية لا يجب على الطرف الآخر – المتضرر – تغييرها، وأن محاولة إصلاح هذا العيب لن يأتي سوى بالمزيد من المشاكل، يمكننا هنا استدعاء مثال هام وهو السيدة عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فمما عرفناه يقينا أنها كانت شديدة الغيرة، وربما ذهبت بها الغيرة مذهبًا مدهشًا في ردة الفعل، ومن قرأ مواقفها مع النبي سيتعجب من

سلوكها حينما كسرت القصعة التي أتت من بيت إحدى زوجاته إليه وهو في بيتها، والأكثر دهشة واستغرابًا أن موقفها كان على مرأى ومسمع من أصحاب زوجها، لكن الزوج الذي يدرك طبيعة زوجته والتي قد تسبق عاطفتها عقلها فيما يختص بهذا الجانب – الغيرة – تغافل وغض الطرف، بل جعل من الموقف ما يشبه الطرفة، حتى إذا ما عاتبها ذات يوم وهما في حضرة الحب قالت له في دلال: لا عتب علي، إذ كيف لا تغار مثلي على مثلك؟

المحور الثاني هنا يخبرنا أننا بحاجة إلى تفهم المشكلات القابلة للحل وبالتالي العمل على حلها وتنقية الصدر منها أول بأول، والتعامل بصبر مع العيوب الشخصية التي تتواجد في شريك الحياة ومحاولة التعايش معها، وعدم جلب المواقف التي قد تستدعي من الطرف الآخر عصبية أو غضبًا أو تذمرًا أو غيرة مثلًا.

المحور الثالث: أن ننتبه إلى تلك الخطوط الحمراء في شخصية كل طرف، رجولة الزوج مثلًا، واعتداده بنفسه، وميله الفطري إلى تقدير جهده، وعدم تسفيه ما يقدمه ويقوم به، كذلك احترام مشاعر المرأة وعواطفها، وعدم تسفيه طموحاتها، وأحلامها، ولا الاستهانة بدورها الحقيقي في تسيير مركب الحياة.

مهما كنا غاضبين من شريك الحياة، فلا يجب أبدًا أن يدفعنا الغضب إلى تخطي تلك الحدود، ولا تأخذنا العزة بالإثم إلى إيلامه من خلال الضرب "تحت الحزام" لنشفي صدرًا ما يلبث إلا ويدفع ثمن ثهوره حينما يتساقط بنيان الثقة والاحترام والحب مع طعناته المتكررة.

وأخيرًا أقول إن صاحبي الذي شرب قهوته رغم مرارتها، قضى وقتًا حتى أدرك أن تلك المرارة أمر لا بد منه إذا ما أراد الاستمتاع بمشروبه المُفضل، وكذلك الحياة، سنتقبلها راضين

إذا أدركنا أن مرارة المشاكل جزء من طبيعتها، لا يمكن الالتفاف حوله أبدًا.

وأن أي مشكلة مهما بدت كبيرة الآن كان يمكن إطفاؤها أول الأمر – كما يقول الإنجليز – بفنجان ماء!، شريطة توافر النية الحسنة، والدافع الإيجابي، والرغبة الحقيقية في الاستمتاع بالحياة.

****

كشف حساب

مع انطلاقة كل صباح أراني واقفًا هناك، أرتدي ملابسي ببطء باعث للملل، أبحث عن مفاتيح سيارتي، هاتفي النقال، حقيبة حاسوبي المحمول، أقف لبرهة أمام المرآة أتأكد من إحكام القناع ثم أذهب في صمت.!

أكاد أختم عقدي الرابع وأنا أتجمل، دهرًا كاملًا قضيته في التأكد من كوني سأروق لهم، عمرًا غير منقوص أنفقته في محاولة نيل الاستحسان والرضا وعبارات المديح والإعجاب.

حياة من التصنع تخللتها كثير من المعارك الفاصلة، تدور كلها حول فكرة إثبات أنني على صواب دائمًا، يهمني كثيرًا أن أقف في كل معاركي موقف المنتصر، يطيب لي أن أرى

خصومي وهم يعضون أصابع الندم من الغيظ، آراؤهم لأنفسهم وآرائي يجب أن تكون للجميع.!

علاقتي بي انقطعت منذ زمن!، الركض المتواصل لم يترك لي فرصة التقاط الأنفاس والاستماع إلى إلى صوتي المتقطع المنهك الحزين الصارخ في وجع حقيقي، ببساطة أنا لست أنا.

الحب والكره، الرضا والغضب، السعادة والنقمة، تلك المشاعر الإنسانية الصادقة التي يفترض أن تخرج خالصة من قلب القلب طالتها المصيبة هي الأخرى، باتت تخرج رياء الناس، تنساب فوق الجوارح بشكل منمق مدروس، الجميل عندي ما استحسنه الناس، والسيء ما امتعض منه الخلق وعابوه، هكذا تمضي الأمور منذ عقود.

كم حياة سأعيش؟!، يقينا حياة واحدة ..لكنها حياة مستهدفة، الجميع يحاول أن يسطو عليها، يغتصبها مني دون أن يدفع الثمن، يأخذها ويأخذ معها كل ما هو حق خالص

لي، وأنا على الجانب الآخر مستسلم لهم، قانع بما دفعوه لي من رضا واستحسان وتمجيد .حياة واحدة ثم ينتهي كل شيء، لكنها حياة باهتة، ذلك لأنها لم تُلون بفرشاة حقيقية، تشبه في جوهرها وجبة معدة سلفًا، لا تحمل في جوفها ثمة فائدة، اللهم إلا إشباع جوع صاحبها حتى وإن كان الثمن ضررًا على طول الطريق..

سألت نفسي يومًا عن جدوى أن أعيش حياتي كاللص، أمضيها سيرًا على أطراف أصابعي خوفا من صُنع جلبة تلفت الأنظار إلي، أن يصبح تفكيري وقولي وعملي موافقًا للمسار العام، نسخة مُقلدة من برنامج هو في أصله مزور غير ذي نفع ولا جدوى .!بدأ الأمر معي منذ زمن..

أذكر عندما كنت طالبًا في المرحلة الإعدادية أن قرأ علينا أستاذ اللغة العربية بيتًا من الشعر وقع في فؤادي موقعًا مرغوبًا:

ويفوز باللذات كل مغامر ويموت بالحسرات كل جبانِ

وحينما طلب منا أن نكتب حوله موضوعًا للتعبير عن فهمنا له، كتبت كل ما جال بخاطري حينها، ولم أذكر في "تعبيري "شئيًا من تعبيرات أستاذي وكلامه، وعندما نظرت له وهو يتأمل ورقتي، أنبأتني ابتسامته الساخرة وتقطيبة جبينه أن هناك ثمة شطرًا ناقصًا في هذا البيت!، معنى لم يذكره الشاعر ولم يخبرنا به الأستاذ، وهو أن المغامرة يجب أن تكون ..محسوبة .!وأن الجبن الذي ذمه في بيت الشعر ليس سيئًا في كل أحواله، بل قد يكون مطلوبًا، ومهمًا، ومقدرًا!؟

وللأسف وعيت الدرس جيدًا، شربته حتى الثمالة، وشربت معه ما تبقى من نوازع التفرد، والتمرد والتعبير شربته ليس لجبن مني وتخاذل، بل لأن كل من ولي أمري بعد ذلك كان حريصًا على أن يسقيني إياه.

أتراني أبكي على لبني المسكوب..؟

لا يا صاحبي، لا زال عندي بقية لم ترق بعد، بقية من أمل في إنقاذ ما يمكن إنقاذه، بضع قطرات قد تروي غليل

رجل تواطأ الجميع على جعله هامشيًا، بقية من فتوة يغذيها الوعي والغضب والتمرد.

بقية من أنفاس يدرك صاحبها أن" كل نفس بما كسبت رهينة"، وعليه، فلا يحق له أن يرهنها بهم، ذلك أنه سيأتي فردًا ليحاسب على ما فعل ، وما لم يفعل.

ليندم على كل خطوة خاطئة، وأخرى صحيحة لم يخطها بثقة وثبات.

وما مثلي إلا تاجر شغله السوق ومعاملات التجارة عن جرد بضاعته، والوقوف على حساباته، ولملمة خسائره.

حتى إذا ما انتبه إلى أنه يتاجر في" الخسارة"، عاد لدفاتره، وراجع نفسه، وأوقف نزيف خسارته، وأعاد تقييم معاملاته وبدأ من جديد..

****

اعتذار

يرى الكثير منا في الاعتذار ثلمة تخدش المروءة، وسقطة يتوجب تداركها، وعيب لا يليق بالكبار.!

لا عجب في ذلك، فنحن شعوب لا تعرف ثقافة الاعتذار، يصنف كل واحد منا نفسه كنَبِيّ لا يخطئ، فهو المعصوم المقدس الذي لا يأتيه الباطل قولاً أو سلوكًا أو فكرًا، نأنف في كبرياء كاذب أن نعترف بخطئنا وذلتنا، يطيب للواحد منا أن يمضي في غَيِّه وتمرده بدلاً عن تراجعه وإنابته.

شخصيًا عندما تتملكني سطوة من ضمير يقظ أتذكر ثلة من أصحاب الحقوق، هؤلاء الذين مضى بي غيّي وغروري عن الاعتذار لهم، وطلب السماح منهم.

أتذكر عم سيد، أول من مارست عليه الظلم وأنا بعدُ لم أبلغ الحلم، في ذلك الزمان البعيد التقيته، حينما كان الطيبون يعيشون بيننا متكئين على بقايا من ضمائر الناس، لا يخشون كثيرَ عنتٍ أو ظلم، بيد أنني كنت ظالماً، كان عم سيد الرجل الضرير يجلس في دكانه الصغير الممتلئ بالكتب والجرائد، يشتري الناس منه ويحاسبونه وهو قابع على كرسيه يراقب وقع أقدامهم ورنين قروشهم في صحن معدني يضعه أمامه.

كنت وأنا ابن العاشرة أقف مشدوهًا أمام أكوام الكتب تملئني رغبة عارمة في امتلاكها، يحدوني طمع . غير شريف . في الاستحواذ عليها، وعندما خذلتني قروشي القلية قررت أنا الآخر أن أخذل تعاليم الدين الذي علمني إياها أساتذتي،

وأوامر ونواهي والدي وأسرق ما طاب لي .!الرجل لا يرى، والطريق آمن، والنفس جشعة تتمنى.

حدث هذا منذ ما يقرب من ثلاثة عقود، امتلأت فيها مكتبتي بمئات الكتب والسلاسل والمجلات، وبينهم يسكن بعض مما سرقت من عم سيد، ترتطم أناملي بين وقت وآخر بكتاب أو أكثر فأشعر بوخزة مؤلمة تنتهي في حينها!، لكن يظل عم سيد الرجل الذي طواه الثرى منذ ربع قرن له في عنقي ثمة دين آمل أن يعفو عنه يوم يعز العفو والسماح.

هل يفيد اعتذاري عم سيد رحمه الله، لا أدري لكنه يمثل لي على الأقل جزءً من مشوار التوبة، ودرجة في سُلَّم الإنابة لنكن أكثر إيجابية إذن ونعتذر لمن لا زالوا بيننا، من يملؤون دنيانا بحضورهم، والذين ربما يحتاجون لاعتذار يداوي جرحًا صنعناه بوجدانهم.

أرى وجه أبي حاضرًا هاهنا، كنت في الثامنة عشر من عمري عندما قررت أن أسافر خارج حدود وطن رأيت حينها أنه أصغر من حلمي، وقتها أخذت قراري، وهبطت إلى ميدان الحياة أعمل وأكدح كي ألملم تكاليف سفري إلى بلد آخر، وبعد عام ونصف قررت أن الوقت المناسب قد آن، فعزمت أمري، وقمت بما يجب علي القيام به، اللهم إلا أمرًا واحدًا .لم أخبر أبي!

تفاجأ ككل الناس بأنني ذاهب، لا أنكر أنني كنت أشعر بابتسامته المغتصبة يلملم أركانها من فوق أطراف شفتيه، كنت أختبئ حينها خلف شعور واهن بالرجولة، وعندما خطوت خطوتي الأولى خارج الطائرة وأبصرت عالم الأحلام وهو يتهاوى أمامي، وأكتشف وقوعي في عملية نصب وتضليل، حينها فقط شعرت بأنني كسرت ظهرًا كان يرتجي أن يكون بي فتيًا، صلدًا، شامخًا.

نعم حين خانني كل من أعرف في تلك الزاوية البعيدة من العالم، لم أستطع أن أرفع سماعة الهاتف لأسمع الصوت الذي وددت أن أسمعه، الصوت الذي خنقته منتشيًا مغرورا.

أعتذر يا أبي، اعتذارًا لا يحبه الطيبون ولا يطلبونه، ذلك أنهم يقفزون فوق أوجاعهم، ليروا العالم بشكل أكثر سماحة ورضا.

يبدو أن الأمر سيطول ومساحة الاعتذار التي قررتها ستضيق بمن ملكوني بحقوقهم؟ فكم صديقًا خذلته حين كان أمله في كبيرًا؟ وكم حبيبًا أوجعته حين انقطع رجاؤه من الدنيا إلا بي، كثر لكنني أذكرهم جميعًا.

أذكرهم وأذكر خطواتهم المحبطة رجوعًا عن طريق رجاء أغلقته دونهم..

أذكرهم لأن الجاني . في بعض الأحيان . يتعذب بأنين ضحاياه .لكن الأكثر سوءًا من ظلم ذوي الحوائج هو ظُلم

أصحاب النعم والفضائل، أن تظلم من ملكك سابقًا بفضله ونعمائه، وظن منك شكرًا وامتنانًا، وهنا أحتاج لأن أتوجه باعتذار إلى كل من:

قلمي، ذلك الذي شقّ لي طريقًا آمنًا إلى قلوب الناس، فخنته أكثر من مرة!

خنته حينما زوّرت به كلامًا يرضي الناس، عندما منعته أن يقول كل ما أؤمن به خشية أن أخسر بعضًا من جمهوري، وقررت أن أرضي القارئ بكلام منمق لا يصدمهم بالحقيقة، نعم لم أكذب كذبا صريحًا واضحًا ، ولكن من قال إن ذكر نصف الحقائق ليس تضليلًا؟!، إن القلم عندما يتلجلج في يد الكاتب يعني أن هناك غشًا في الأمر، وما أكثر ما تلجلج القلم بين أناملي.

وأعتذر كذلك إلى الرجل الأعظم، الذي أحببته بصدق لكنني لم أكلف نفسي شرف إيضاح عظمته للناس، الرجل الذي تواطأ كارهوه ومحبوه على بطره حقه.

أعتذر إلى محمد صلى الله عليه وسلم، العظيم الذي أرهق نفسه حتى يعطيني دليلًا يقيني عثرات الطريق، لكنني ومع إدراكي الكامل بفضله علي لم أكن جنديًا حقيقيًا في معسكره، اكتفيت بشرف الانتماء إلى جانبه، دون أن أحمل نفسي على دفع الثمن المطلوب، ولم يطلب . عليه السلام . ثمنًا، فوق أن أكون فاضلًا وصالحًا وشريفًا في غالب أحوالي ...فهل هذا بكثير؟؟

الأعجب من كل هذا أن أكون –بجانب تقصيري الواضح –طامعًا في محبته، طالبًا لشفاعته، راجيًا أن أجاوره في مجلسه الأبدي .!حقًا ..خُلق الإنسان كفورًا.

حاولت أن أتهرب من اعتذاري الأخير لأن حجلي سيكون عارمًا، ولكن الصراحة التي أدعيها لن تسمح لي بأن لا أدوِّن اعتذاري إلى الله.

خالقي الذي تفضّل وأكرم وأنعم كثيرًا، وأسدل ستره على قبائحي فأحسن الناس بي ظنًا، والذي لو رفع يده عني

لصرت في وحشة من أمري، ولو تركني لتدبيري لكنت في حال أرتجي فيها باطن الأرض راحة ونعيمًا.

ولو أفردت فصولًا أعتذر فيها عن ذنوبي لما كفتني أوراق الدنيا، دعنا من أنني لن أهتك سترًا سترني إياه، لكنني على الأقل بحاجة إلى الاعتذار عما ظننت أنه قربان له.

أعتذر عن صلاة كثيرًا ما قدمتها بين يديه وجبة باردة!، تمارين لا روح فيها ولا حياة، تمتمة شفاه بينها وبين الوعي ألف حاجز.

أعتذر عن رفع كفي بدعاء أطلب فيه خير الدنيا والآخرة، لكنني لم أكن حاضر حينها، أستجدي وأنا غير موجود، أطلب في وقاحة مالا أستحقه، دون حتى أن أبذل جهد إدراك معنى كلماتي.

أعتذر عن صوم يحتاج إلى كفارة!، وعمل صالح حركني إليه هوى نفس، ومواقف شرف وقفتها رياء الناس..

أعتذر يا إلهي عن اعتذار يحتاج هو نفسه إلى اعتذار!

فاللهم اغفر، وسامح، ولا تجعلنا ممن يضلون الطريق وهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا، وهبنا نعمة الشكر، وفضيلة الاعتذار، وافتح بيننا وبين قومنا بالحق، فأنت يا الله خير الفاتحين.

****

مناجاة

إلهي علمني كيف أكره!..

كيف أغلق قلبي دون نداءاتهم الملحة، كيف أسبق صبري لأثور، وأوثق حلمي فلا يكن له علي سبيل!

إلهي إنهم يسرقون كينونتي، يضعون على مشاعري أثقالًا من العبث، يفرغون فوق أحاسيسي أطنانًا من البلاهة كي لا أنبس ببنت شفة، لا رفض أملكه، ولا صراخ أثبت به أن بي ثمة نفس أو حياة.

علمني يا إلهي كيف أكره النفاق، ذلك الذي بات لحن قافلتنا الأثير، والذي صرت أسمعه ليل نهار حتى غدا أشبه

بترنيمة صلاة، كافر كل من خالفها، فاسق من شذ عنها وردد لحن فطرته الصافية.

كيف صارت دروب الصدق موحشة هكذا؟، كيف طابت لضمائرنا أن تستريح تحت جدار الزيف والخداع؟؟ والأدهى كيف صارت اللامبالاة ضاربة فينا، أريد أن أغضب، أن أثور، أن أرفض، أن ألحق ما تبقى من روحي المغتصبة، أريد أن أكره يا إلهي.

علمني يا إلهي أن أكره قوانينهم، أن أنبذ قواعد السياسية والاقتصاد وتدابير الكبار، أن تصبح قاعدتي التي أنطلق منها هي الإنسان، وأي شيء عداه يصبح لغوًا وتضليلا، اعصمني من خرافة" الدولة"، وكذب "الإحصائيات"، وخدعة" القانون"، اجعلني مع الناس، ارزقني فهما يجعل الإنسانية هي قانوني الراسخ، وحرمة الدم والعرض والشرف أقوى من معايير النصر التي يدونها المنتصر في كتب التاريخ.

علمني يا إلهي كيف أكره..

أكره خوفي الذي يكبل لساني فلا ينطق بالحق، وجوارحي فلا تلحق بقوافل الأخيار، وقلبي فيحطم فيه نوازع الإيثار والشفقة ومشاركة خلقك ما هم فيه، أنقذني يا إلهي من شبح الأنانية الذي يُظلم روحي، ويعميني عن رؤية الظالم ما دام ظلمه عني ببعيد، ويصم أذني فلا تسمع نواح الشاكي، ويضرب على عيني غشاوة فلا ترى دمع المنكسر، ويقعدني عن فعل ما خلقتني من أجله.

مصيبتي يا إلهي لا يصلح فيها عزاء ليس لها من دواء إلا أن أكره

نعم أن أتعلم كيف يحمر وجهي حين تنتهك حرمة عبيدك، كيف أشعل شرارة الغضب فلا تبقي ولا تذر، كيف أقذف حمم الكراهية في وجه كل مغتصب، كيف أستثقل رأسي حين ترسو على جسد يرى القبيح فيديرها في الاتجاه الآخر.

أريد أن أكره اللصوص يا إلهي..

كل لص سطا على ما ليس له، لصوص الدين الذين تاجروا بتعاليمك، هؤلاء الذين باعونا دينًا أنانيًا يأمرنا بأن نغلق أبوابنا ونبكي على خطايانا دون أن نضرب الحق بالباطل ليدمغه، الذين يأمروننا بالرضا والشكر والحمد على ما نحن فيه، لا لشيء إلا لنصبح جسدًا مخدرًا قابلًا للانتهاك الدائم، أي مقاومة ورفض في دينهم هي كفر بك وجحود بقدرك، هكذا يسرقون منا ما أمرتنا به، كرامتنا وعزتنا التي وهبتنا إياها وجعلتها ركنًا أصيلًا في تكويننا.

يسرقونها ليقدموها إلى لص آخر، لص أبله مجنون، يحكم في رقابنا ودمائنا، ومعاشنا، لص رفعوه إلى مرتبة أنبيائك!

بلى.. لصوص الدين جعلوا من لصوص الدنيا أنبياء، نعم القاتل صار موسى، والخائن بات هارون.

علمني كيف أكرههم يا إلهي كراهية تلقي بي إلى الجانب الآخر، جانب الحق الذي لا تستقيم كفته إلا بالتدافع والممانعة.

علمني يا خالقي كيف أكره الأمر الواقع، كيف أتمرد على ما هو كائن وراسخ ومستقر، كيف أمقت كل ما يسلب جوهر الفطرة والحقيقة لصالح الواقع وأبجدياته ومتطلباته.

كراهية لا تنبع من قلب حاقد مشتعل، بقدر ما تنبع من قلب حزين غاضب، ذلك الحزن النبيل الذي دفع نبيك وعبدك الأعظم ليهجر لغو مكة وأباطيل أهلها ليصعد إلى علٍ، إلى جبل ينظر من خلاله إلى ظلام الباطل وقد غطى أفضل بقاع أرضك، هذا الحزن الذي هبط به ومعه ليغير بعده الدنيا كان نبيك مسالمًا، لكن وجهه الهادئ المبتسم كان يسرع بالاحمرار والغضب حينما تنتهك الفطرة، ويطال عبثهم حدودك ومقدساتك.

إلهي بت أمقت سلمًا لا يجري إلا على حساب المظلوم، وأسخر من دعاوى التعايش والتآخي التي لا تقال إلا لتضيع حقًا مغتصبًا، وأرفض أن تتصافح اليدان ما دامت إحداهما مغموسة بالدم.

مكتبة الرمحي أحمد

امنحني يا إلهي رفض أبي ذر، ودرة عمر، وثورة ابن الزبير، وفداء الحسين..

ارزقني غضبًا تقصف به طمأنينة الظالم، اضرب الظالمين بنا فداء لمن استضعفوا، وأخرج الخوارين والمتقاعسين والمتخاذلين من المعركة سالمين.!

أخرجهم سالمين في أجسادهم وأقواتهم، سلامًا مهينًا وضيعًا يليق بكبريائهم المسحوق، وكرامتهم الضائعة.

اللهم أنت الحق، ولقاؤك حق، ووعدك حقك، ونصرك للحق حق فانصر الحق بنا، ولا تخذنا في ساحة الدنيا والآخرة.

****

خاتمة

أما وأن رحلتنا كانت قليلة الكلفة والمجاملة، فلنجعل الخاتمة أيضًا كذلك..!

خصوصًا وأن تجارب الماضي البعيد والقريب أثبتت أن جزءً كبيرًا من أزمتنا يكمن في الخواتيم، في عدم التأني للتأكد من أن اللحظة الراهنة هي لحظة الخاتمة !.

منذ مصيبة المسلمين الأوائل في أحد ونحن نكرر نفس الخطأ، الركض السريع نحو الغنائم، والاحتفال المبكر بالنصر وترك ظهورنا مكشوفة للعدو.

وعليه فاسمح لي بأن أشدد على يديك مذكرًا بما قلته خلال الصفحات الماضية، لا سبيل للإيمان الصحيح قبل الكفر الصريح.

ولن نرسم بأقلامنا طريقًا للأمل إلا بعدما نمضي على طرقهم السابقة بمحاة.

أما وقد باتت القضية قضيتنا، والهم همنا، والوجع وجعنا، فلا مناص إذن من فرض طريقتنا، ورسم المنهج الذي نرى بأنه الأولى والأهم، ونحن على استعداد تام لتحمل تكاليف التمرد وتبعات التحريض.

والسلام بداية

وختام.

****

مكتبة الرمحي أحمد

للمزيد والجديد من الكتب والروايات تابعونا

فيسبوك.. مكتبة الرمحي أحمد

***@ktabpdf** تيليجرام ..*

الفهرس

إهداء.....5

على سبيل التقديم.....7

دعوة للتحريض.....13

ولا أنا عابد ماعبدتم.....20

تربيتنا الغلط.....28

مسجل بعلم الوصول.....35

لماذا يجب أن تكون نصابا.....41

نفوس غاضبة.....48

هل لديك عدو.....56

لما الأسد ملك الغابة.....62

إنسان استئنائي.....68

الأنبياء الكذبة.....76

مجتمع غير عقلاني.....82

متى يصبح الانتحار حلا.....88

معركة شخصية.....97

لا نامت أعن الجبناء.....101

لا تبع حياتك بالرخيص.....108

جريمة اسمها التعليم.....115

الدين والثورة.....122

المشكلة في "الكونسبت".....130

والتهمة.. مطلقة.....137

طريق الحرام.....145

هل الزواج مقبرة الحب.....153

نعم.. يعيش الحب مع المشكلات.....166

كشف حساب.....175

اعتذار.....180

مناجاة.....189

خاتمة 196

الأنبياء الكذبة !

لم يعد لدينا ما نخسره ..! بهذه العبارة الصادمة يبدأ كريم الشاذلي مشواره الجديد في هذا الكتاب، وأقول الجديد لأن الكاتب الذي أمضى جل حياته يبشر بالأمل والتفاؤل قرر أن يعيد قراءة الواقع بشكل مختلف .. بشكل غاضب!. ولم لا وهو يؤكد أن أي بناء ارتفع على أسس غير سليمة فهدمه أولى، وإزالته باتت واجبه، فما بالك والكاتب هنا يرى بأنه ينتمي إلى جيل متربص به، يتواطأ كل من حوله على جعله مسخًا مشوهًا غير قابل للتحدي والمقاومة، وعليه لقّم قلمه رصاصات من الرفض والتمرد، وقرر أن يكفر بكل الأنبياء الكذبة الذي يسرقون منا حاضرنا ومستقبلنا لصالح الماضي بكل عفنه وظلمه وجبروته، يكفر بتعاليم أصحاب الشعر الأبيض، والتي لو كان فيها ثمة خير لما أسلمتنا لما نحن فيه، يكفر برجال الدين الذين باعونا دينًا يشبه في ظاهره دين الله، لكنه في حقيقته يأخذنا بعيدًا عنه، يكفر بالوالي إذ يبيعنا المذلة والخنوع بحجة الحفاظ على الأمن والاستقرار!.

يكفر بكل نبي كاذب ارتدى مسوح الرهبان، وراح يوزع صكوكه على من أذعن وأطاع، هي دعوة للكفر إذن، يرى الكاتب ضرورة أن تكون سابقة لأي تغيير أو إصلاح يرتجى، وبغير هذا الكفر الصريح فإننا سنظل في التيه عالقين ...

الناشر

كريم الشاذلي

تخرج من كلية الإعلام جامعة القاهرة
كتب ٢٠ كتاب في مجال تنمية وتطوير الشخصية
حاضر ودرب أكثر من ١٠٠ ألف شخص
ترجمت كتبه إلي خمس لغات
بيع منها مجتمعة أكثر من مليون ونصف مليون نسخة

مكتبة الرمحي أحمد

ISBN 978-977-6463-33-2